أثر السياق القرآني على تكوُّنِ أسلوبه البلاغي
بناء الفعل لما لم يُسم فاعله
في سورة البقرة أنموذجاً

إعداد

د/ عمرو إبراهيم البنداري عبده

مدرس البلاغة والنقد في كلية الدراسات الإسلامية والعربية
للبنين بدمياط الجديدة

أثر السياق القرآني على تكوُّنِ أسلوبه البلاغي
بناء الفعل لما لم يُسم فاعله في سورة البقرة أنموذجًا

عمرو إبراهيم البنداري عبده
قسم البلاغة والنقد ، كلية الدراسات الإسلامية والعربية للبنين بدمياط الجديدة، جامعة الأزهر، جمهورية مصر العربية
البريد الإلكتروني: AmrAbdo.33@azhar.edu.eg

الملخص :
الكشف عن أثر السياق الذي هيأ ودعّم تكوّن الأسلوب، وساعد على إبرازه في سياقه دون غيره هو من الأهمية بمكان؛ لأن ذلك يكشف بجلاء عن أن الأسلوب لم ينشأ حيث نشأ اعتباطًا، وإنما وُضع وضعًا محتومًا لمقدمات طبعية، تُبرز قوة تغلغل هذا الأسلوب في السياق، فضلاً عما تحدثه من في الفكر من إثارةٍ تكون عاملاً فاعلاً في استخراج الأسباب التي آلت بالكلام إلى صياغته على هذا النحو من التعبير، والتعرّف إليها؛ على أساسٍ يكشف عن أسرار تكوّن تلك الأساليب في سياقاتها؛ ولهذا، آثرت معالجة تلك الفكرة بدراستها في خير كلامٍ، القرآنِ الكريم. وخلصت الدراسة إلى:
١_ وجودِ علاقة وثيقة بين الأسلوب البلاغي وما يُذكر قبله من معانٍ مُهيِّئة لتكوّنه، كما أبرزت أثر السياق في ترجيح الْمعنى البلاغي المراد.
٢_إقامةِ الدلائل السياقية على أن الأفعال التي بُنيت لِما لم يُسم فاعلها في شواهدها قد وردت لِمُسوّغات معنوية ومقامية اقتضاها السياق.
٣_ من خلال جمع الصيغ الْمماثلة _قدر الْمستطاع_ لموطن الشاهد نفسه؛ تم التوصّل إلى ما إذا كان الْمعنى الْمفاد من هذا الأسلوب قد اتّحد في الْمواضع التي ورد فيها، وبذلك يكون خصيصة من خصائص الأسلوب القرآني الْمعبَّر به في هذا الْمقام، أم زاد مقامٌ مّا بفائدة أخرى على تلك الْمذكورة.
٤_استنباط براهين وثيقة تهدي إلى الْمعنى البلاغي الذي تولّد عن ورود الشاهد على تلك الصياغة.

الكلمات المفتاحية: السياق، البقرة، تكوّن، التعيّن، الفاعل

The impact of the Qur'anic context on the formation of his rhetorical style
Constructing a verb when its subject is not named in Surat Al-Baqarah is an example

Amr Ibrahim Al-Bendari Abdo
Department of Rhetoric and Criticism, College of Islamic and Arabic Studies for Boys, New Damietta
Email: AmrAbdo.33@azhar.edu.eg

Abstract :
Revealing of the impact of the context that predisposed and supported the formation of the style, helped to highlight it in a context only of great importance; because reveals clearly that the style didn't originate at bitrarily, or by chance, but in an inevitable situation for natural premises, that highlight the power of this style penetration into the context and its harmony with, as well as the effect that arises from implementation of thought in deriving the reasons that led the speech to be formulated in this way of expression, identifying and understanding them on a base that reveals the secrets of these methods in their contexts, It is clear to reach the meanings to what they are, complete and un diminished in any way, Thus, I prefere the treatment of this idea by studying it in the best words, The Holy Quran, to be a role model. The study concluded:
1_ The existence of a close relationship between the rhetorical style and the preeminences mentioned before it were prepared to form this style, revealed the impact of the context effect in directing the rhetorical meaning towards it.
2_ Establishing the context evidences that reasoning the actions whose prerpetrator was not named in the testimonies under study didn't formulate in that case, except with justifications that the meaning required and the situation preferred.

Keywords: Context, Cow, Formation, Designation, Subject

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد لله الذي أذهب عن أعدائه كل أمان، وأفاض على قلوب أوليائه حلل الأمن الضافية الحسان، ومناهل اليقين الصافية الْمشاهدة للعيان. والصلاة والسلام على ماحي ظلمات الشرك والضلال بإذن ربه الكبير المتعال. صلاةً وسلامًا عليه وعلى آله وأصحابه، ومن تبعهم وسار على نهجهم بإحسان إلى يوم الدين.

وبعد،

فإذا كانت بلاغة أسلوب الحذف بصفة عامّة قد حظيت بعناية أعلام البلاغة ذوي الفكر الصائب، والذهن الْمتّقد؛ حيث أعاروها اهتمامًا بالغًا يشفّ عن مدى رهافة البحث فيها، ووعورة مسالكها _فإن الكشف عن أثر السياق الذي هيأ ودعّم تكوّن هذا الأسلوب، وساعد على إبرازه في سياقه دون غيره هو من الأهمية بمكان؛ لأن ذلك يكشف بجلاء أن الأسلوب لم ينشأ حيث نشأ اعتباطًا، أو عن طريق الصدفة، وإنما وُضع وضعًا محتومًا لمقدمات طبعية، تُبرز قوة تغلغل هذا الأسلوب في السياق، وتناغمه معه، فضلاً عن الأثر الذي ينشأ عن إعمال الفكر في استنباط الأسباب التي آلت بالكلام إلى صياغته على هذا النحو من التعبير، والتعرّف إليها، وتفهّمها؛ رغبة في فتح أبواب جديدة تساعد منشئي الكلام على إتقان ما ينظمون، ونقْد ما يتعرضون له من القول، على أساسٍ يكشف عن أسرار تكوّن تلك الأساليب في سياقاتها، ويستجلي سبيل الوصول بالمعاني إلى ما هي عليه، كاملةً غير منقوصة بحال من الأحوال أو مُقاربةً لذلك؛ ولهذا، آثرت معالجة تلك الفكرة بدراستها في خير كلامٍ، القرآنِ الكريم؛ ليكون نبراسًا يُحتذى به، وذلك عن موضوع اسمه: **(أثر السياق القرآني على تكوُّنِ أسلوبه البلاغي. بناء الفعل لما لم يُسم فاعله في سورة البقرة أنموذجًا).**

دوافع اختيار الموضوع:

١_ أهمية هذا الجانب في الدراسات البلاغية والنقدية؛ إذ إنه يُعطي المنشئَ رؤية جديدة عن الصياغة القويمة جديرة أن يتمثلها؛ ليقع فيها على ما ينهض بالأسلوب، ويُرقّيه إلى المكانة العليا من التعبير.

٢_عدم إفراد دراسات بلاغية تبحث هذا الأسلوب _على حد اجتهادي_ مع يزخر به من العطاءات، التي تُكسب الْمعنى ثراءً، والسياق خصوبة.

٣_محاولة إظهار البواعث السياقية التي دفعت إلى تكوُّن أسلوب بناء الفعل لما لم يُسم فاعله في سورة البقرة، ومدى اتصال ذلك بِما ذُكر قبله من معانٍ قد هيَّأت لتكوّنه، وأثر ذلك في ترجيح الْمعنى البلاغي المراد.

الدراسات السابقة:

لم يهتد الباحث _على حد اجتهاده_ إلى دراسة سابقة تناولت هذا الموضوع بالبحث والدراسة.

خطة البحث:

قامت الخطة على تقسيم البحث إلى: مقدمة، وتمهيد، ومبحثين، وخاتمة، ومجموعة من الفهارس.

الْمقدمة: تناولَتْ أهمية الموضوع، ودوافع اختياره، والمصادر السابقة، ومنهج البحث.

التمهيد: وفيه نُبذة يسيرة عن أهمية أثر السياق ودوره الفاعل في تكوّن الأسلوب البلاغي، كما أن فيه عرضًا لكيفية تناول علماء البلاغة العربية لأسلوب بناء الفعل لما لم يُسم فاعله، وإبراز أسراره _إن وُجِدت_.

المبحث الأول: أثر السياق بلاغيًّا في تكوُّنِ الفعل الْمبني لِما لَم يُسم فاعله في مقامات الترغيب.

المبحث الآخَر: أثر السياق بلاغيًّا في تكوُّنِ الفعل الْمبني لِما لَم يُسم فاعله في مقامات الترهيب.

الخاتمــة: فيهـا أبـرز النتـائج التـي هُـدِي إليهـا البحـث، متبوعـةً بـبعض التوصـيات، التـي يـرى البحـث أن يُوجّـه البـاحثون نظـرهم صوبها؛ إتمامًا للفائدة الْمرجوة.

منهج البحث:

أمـا الْمـنهج الـذي اتبعتـه فـي تلـك الدراسـة فهـو الْمـنهج التحليلـي البلاغي، الذي يراعي الأصول البلاغية في تحليل النّصوص. وحتى تسمو الفائدة الْمرجوة فقد راعيت حال استنباط الْمعاني البلاغية من الشواهد موطن الدراسة أسسًا، منها:

أولاها_ النّظر إلى الجملة أو الجمل التي قبل موطن الشاهد مباشرة؛ للوقوف على الْمعاني الْمتخللةِ السياقَ التي مهّدت بدورها وساعدت على ورود الأسلوب الْمذكور على هذا النحو من الصياغة.

ثانيهـا_ التأمـل فـي الْمعـاني التـي سـبقت الشـاهد مباشـرة؛ لاسـتنباط برهانٍ وثيقٍ يهدي إلى الْمعنى البلاغي الذي تولّد عن ورود الشاهد على تلك الصياغة، ومحاولة تعضيد هذا الْمعنى الْمستنبَط بشواهد من النظم نفسه تؤكد هذا الْمعنى.

ثالثها_ جمع الصيغ الْمماثلة لموطن الشاهد نفسه؛ لمعرفة ما إذا كان الْمعنى الْمفاد من هذا الأسلوب قد اتّحد في المواضع كلها التي ورد فيها، وبذلك يكون خصيصة من خصائص الأسلوب الْمعبَّر به، أم زاد مقامٌ مّا بفائدة أخرى على تلك الْمذكورة؛ ومن ثَمّ يتم الوقوف مع الْمقام الذي زِيدت فيه تلك الفائدة؛ لاستجلاء السبب الذي سِيقت لأجله في سياقها الواردة فيه؛ طلبًا لخصيصة أخرى من ورود هذا الأسلوب المصحوب بصياغة غير الْمعهودة من التعبير به.

والله أسأل أن ينفعني والْمسلمين بهذا العمل، ويجعله خالصًا لوجهه الكريم؛ إنه نعم المولى ونعم النصير. وصلّ اللهم على نبينا محمدٍ، وعلى آله وصحبه، والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين.

تمهيد:

حين تُقدم على الكتابة عن هذا الموضوع وتلتمسه في المصادر التي تحدثت عن البلاغة بشتى فروعها فلا تكاد تضع يدك _غالبًا_ على ما ينقع غلة، أو يشفي علة؛ ذاك أن البحث فيه لم يُعط حقه من الدراسة كغيره مما لا يكلف كاتبه عناء كبيرًا؛ لقيامه على نظير له، أو مثيل، أو على ما قد أُسس له قبلُ من قواعدَ ساعدت على دراسة أيٍّ من مباحث العلم المتشعبة.

أما هذه الفكرة فتقوم في الأساس على الاعتقاد الجازم بوجود علاقة وطيدة بين الأسلوب القويم وما سبقه من معانٍ ساعدت على تكوّن هذا الأسلوب وإيثاره على غيره من الأساليب، مع وفرتها، وغزارة عطاءاتها، بيد أن الْمُنشئ إذا رام تميُّزًا وتفردًا تجده يتنخل تلك الأساليب، واقفًا منها على أشدها تناغمًا وتسايرًا مع ما يقصد إليه من تعبيرات ومعانٍ، تترجم عن خلجات حسّه وخطرات نفسه ومنازع قلبه، بحيث لا يرضى عن إيراد أيٍّ من التراكيب إلا ما نشأ منها عن رحم الْمعنى السابق له؛ لعلمه اليقيني بوجود فرق بيِّنٍ في الْمعنى السياقي إذا حُوّل الأسلوب الْمصاغ عن الصورة التي بُني عليها إلى صورة مباينة لها؛ فالسياق الذي يحسن معه بناء الفعل لفاعله _مثلاً_ قد لا يحسن معه بناء هذا الفعل نفسه لِما لم يُسم فاعله، وقس على هذا جميع الأساليب؛ وإلا يئول الكلام إلى عبثٍ، يصير مقياس التّمام فيه إلى ما لا يطيقه أولو الألباب.

ثم إنك إذا تأملت وجدت أن السياق _أيضًا_ الذي يتمخض عنه أسلوبٌ مّا يتباين ضرورةً عن السياق الذي يتمخّض عنه أسلوبٌ مغايرٌ، بحيث يلامس المعنى الْمقصود، ويتصل به، ولا ينأى عنه في شيء مما يتم به الْمراد.

هذا، والمتدبر لهذا الموضوع يجده يتباين تباينًا تامًّا عن أمر التناسب الْمعنوي الذي يجمع بين الْمفردات وكذا التراكيب في سلك واحد من النظم؛ إذ البحث في التناسب الجامع بين الْمعاني يرمي إلى معرفة الوجه أو الوجوه

التي تجمع بين السابق واللاحق من تلك الْمعاني، ومحاولة التوفيق بينها، والكشف عن السّر الذي لأجله وُجد الْمعنى لاحقًا لغيره أو سابقًا عليه. أما فكرة هذا الموضوع فتقوم في الأساس على معرفة الْبواعث التي مهّدت بدروها لتكَوُّن الأسلوب البلاغي نفسه، ومسوغات الإتيان به على نحوٍ مّا يتلاءم مع السياق الوارد فيه؛ إذ الأسلوب هو الأداة التي تُتخذ مطية لفهم الْمعنى المراد، والتعبير عنه في جلاء.

ومعلوم يقينًا أن ورود الأسلوب البلاغيّ على نحو مّا من التعبير، والوقوف على المقومات التي أفضت إلى تكوّن هذا الأسلوب، يتغاير تمام التغاير مع ما يتطلبه البحث عن المناسبات الْمعنوية التي تجمع الْمعاني الْواردة في سياق واحد أو سياقات متعددة، ومحاولة التوفيق بينها وبين ما ورد في حيّزها من معان، وجمعها تحت جامع واحد يدفع عنها ما قد يعتري بعض الأفهام من الاختلاط وسوء الفهم في كيفية الجمع بينها.

هل أفرد أعلام البلاغة لبناء الفعل لِما لم يُسم فاعله قِسمًا من دراستهم؟

المطالع لكتب التراث البلاغي يُدرك جليًّا عدم إفصاح أيٍّ منها _على حدّ اجتهادي_ على شيء، ولو يسيرًا، يتناول دراسة الأسرار والفوائد التي تكتنف بناء الفعل لِما لم يُسم فاعله؛ فتجد الشيخ عبد القاهر (ت:٤٧١هـ، أو ٤٧٤هـ) _رحمه الله_ مع شدة عنايته بأسلوب الحذف لكن دراسته له خلت من الوقوف مع الفعل الْمبني لِما لم يُسم فاعله[١]. كما أن العلامة الزمخشري (ت:٥٣٨هـ) _رحمه الله_ في تفسيره الجليل لم يذكر أيًّا من ذلك[٢] _على حدّ اجتهادي_. ثم تُمعن النظر في السفر النفيس للعلامة

(١) ينظر: دلائل الإعجاز: ١٤٦: ١٧٢ _تح: أ/ محمود محمد شاكر أبو فهر، مطبعة المدني بالقاهرة، دار المدني بجدة، ط٣، ١٤١٣هـ/ ١٩٩٢م.

(٢) لاستجلاء كيفية تناوله لهذا الأسلوب، يُنظر: الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل، وعيون الأقاويل في وجوه التأويل: ١/ ١٠٣، ١٣٥، ١٤٤_دار الكتاب العربي، بيروت، ط٣، ١٤٠٧هـ.

السكاكي[١] (ت:٦٢٦هـ) _رحمه الله_، وكذا الْمُؤلَّف الجليل لأبي المعالي، جلال الدين القزويني[٢] (ت: ٧٣٩هـ) رحمه الله_ فتجدهما _أيضًا_ يسيران على خطى مَن سبقهما في ترك دراسة هذا الأسلوب. بيْد أنّ الإنصاف يقتضي ألا نُغمض الطرف عن الْجهود الْمحمودة التي بذلها أولئك العلماء وغيرهم في بحثِ كثيرٍ من طرق الحذف.

كما أن الإنصاف يقتضي _أيضًا_ أنْ يُعلم علمًا يقينيًّا أنَّ ترك معالجة هذا الأسلوب بلاغةً من لدن الأعلام السابقين، ومجانبة البحث في سياقاته عما يحيط بها من أسرار وخصائص، لا يقدح في مكانتهم، ولا يُسوّغ توجيه اللوم إليهم، أو التحامل عليهم؛ ذاك أنهم نبهوا على كثيرٍ من طرق الحذف، وكشفوا عن أسرارها البلاغية، وأقاموها منارات قد تهدي مَن يسير بعدهم على هذه السبيل، وتساعدهم على الاجتهاد والبحث فيما قد يطرأ بعدُ من قضايا وأفكار؛ محلّقين في آفاق الفِكْر والإبداع لاستنباط ما لا عهد لهم به من قضايا ومعارف، ما استطاعوا إلى ذلك من سبيل.

(١) ينظر دراسة العلامة السكاكي _رحمه الله_ لمواطن الحذف في كتابه: مفتاح العلوم، ومن ذلك: ٧٨، ١٢٠، ١٢٤_ مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأخويه، مصر، ١٣١٨هـ.

(٢) ينظر دراسة العلامة الخطيب _رحمه الله_ لمواطن الحذف في كتابه: الإيضاح، ومن ذلك: ١٨٨، ١٨٩، ٣٠٨، ٣٢١، ٣٢٤_ تح: أ.د/ فرج محمد فرج أحمد، رسالة دكتوراه، مخطوط في كلية الدراسات الإسلامية والعربية للبنين بالقاهرة، ١٤١٤هـ/ ١٩٩٣م.

المبحث الأول: أثر السياق بلاغيًا في تكوُّنِ الفعل الْمبني لِما لَم يُسم فاعله في مقامات الترغيب

الْمتأمل في سورة البقرة يتبدّى له ورود أفعال كثيرة في مقامات الترغيب قد سِيقت مبنية لِما لم يُسم فاعلها. كما يظهر له كذلك تباين السياقات الواردة فيها، والتي ساعدت بدورها ودعّمت بناء تلك الأفعال لِما لم يُسم فاعلها، ومن ثَمّ تغايرت أسرارها البلاغية وفوائدها الأسلوبية.

وفيما يأتي يسوق الباحث بعض الشواهد لهذا الحذف من سورة البقرة، كاشفًا عن أثر السياق في تكوُّن تلك الأفعال الْمبنية لِما لم يُسم فاعليها، مُبينًا عن الْمعاني التي سلفت هذه الصياغة فوطّدت دعائمها وآثرتها على طرائق القول التي تُبنى فيها الأفعال لفاعليها، واقفًا مع الدلائل والمنارات التي ساعدت في الوصول إلى الأسرار البلاغية التي تُسيج هذا الأسلوب وتفيض منه، مستمدًّا العون والحول من الله _تعالى_ وحده.

_فكان مما بُني لِما لم يُسم فاعله في سياقات الترغيب الأفعالُ: ﴿رُزِقُواْ، رُزِقْنَا، وَأُتُواْ﴾، الواردة في سياق الآية الكريمة: ﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ كُلَّمَا رُزِقُواْ مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقًا ۙ قَالُواْ هَٰذَا ٱلَّذِى رُزِقْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَأُتُواْ بِهِۦ مُتَشَٰبِهًا ۖ وَلَهُمْ فِيهَآ أَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ ۖ وَهُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾[1] (البقرة: ٢٥).

---

(١) ﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ ، أي: أخبرهم خبراً يظهر به أثر السُّرور على بشرتهم. ﴿قَالُواْ هَٰذَا ٱلَّذِى رُزِقْنَا مِن قَبْلُ﴾؛ لتشابه ما يُؤتَون به. وأرادوا: هذا من نوع ما رُزقنا من قبل، ﴿وَأُتُواْ بِهِۦ مُتَشَٰبِهًا﴾، في اللَّون والصُورة، مختلفًا في الطَّعم، وذلك أبلغ في باب الإعجاب، ﴿وَلَهُمْ فِيهَآ أَزْوَٰجٌ﴾: من الحور العين والآدميات، ﴿مُّطَهَّرَةٌ﴾ عن كلِّ أذىً وقذرٍ ممَّا في نساء الدُّنيا ومن مساوئ الأخلاق وآفات الشَّيب والهرم، ﴿وَهُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾؛ لأنَّ تمام النِّعمة بالخلود.
الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، أبو الحسن علي بن أحمد بن محمد بن علي الواحدي، =

وعند الرجوع بهذه الأفعال: ﴿رُزِقُوا، رُزِقْنَا، وَأُتُوا﴾ لفاعلها الحقيقي، تجد أنه هو الله _سبحانه_؛ لأن شأن الرزق بيده وحده، يقضي فيه بما يشاء لا ينازعه في ذلك منازع، ولا يعوقه عن إمضاء ذلك بطش أحد أو جبروته؛ ولذلك، تجد أن تصريف الأرزاق شيء ما ادّعاه مخلوق لنفسه عبر العصور والأزمان، بل قد أقرّ به أساطين الكفر، وأجمعوا أمرهم على أن هذا من البَدَهيات التي لا مندوحة لهم عن الإقرار بها؛ فوجودها لا يفتقر إلى الاستدلال عليه، أو إقامة البرهان لبيان صحته؛ ومما يدلك على ذلك قوله تعالى: ﴿ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ۚ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ ۚ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴾ (يونس: ٣١).

ثم إن نزرًا يسيرًا من البصيرة الحية قد تهدي ذويها إلى أمرٍ مهم جدًّا في شأن بناء الأفعال: ﴿رُزِقُوا، رُزِقْنَا، وَأُتُوا﴾[1] لِما لم يُسم فاعلها في هذا السياق، وهو أن عدم تسمية الفاعل مع تلك الأفعال قد تولّد ونشأ من دون استكراه عن المعاني الْمتعاقبة التي انطوت عليها الْجمل التي سيقت قبل هذه الأفعال في الآية نفسها، وهي قوله تعالى: ﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟

=

النيسابوري، الشافعي (ت: ٤٦٨هـ): ٩٦_ تح: صفوان عدنان داوودي، دار القلم ، الدار الشامية، دمشق، بيروت، ط١، ١٤١٥هـ.

(١) لم تبحث التفاسير القرآنية الْمهتمة بإظهار الفوائد البلاغية للنظم القرآني البواعثَ السياقية التي مهّدت لبناء هذه الأفعال لِما لم يُسم فاعلها، كما لم تُبرز كذلك السر البلاغي الذي يقف خلف عدم ذِكر فاعلٍ لهذا الأفعال في سياقاتها تلك _على حدّ اجتهادي.

ومن ذلك، يُنظر: تفسير الراغب الأصفهاني:١/ ١٢٣، ١٢٤. والكشاف عن حقائق غوامض التنزيل:١/ ١٠٧، ١٠٨. والتفسير الكبير:٢/ ٣٥٨، ٣٥٩. ونظم الدرر في تناسب الآيات والسور:١/١٩٢، ١٩٣. والتحرير والتنوير:١/٣٥٦، ٣٥٧.

ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ ﴾؛ لأن تلك البشارة الْمسوقة في مُستهل هذه الآية إنما سيقت لِمن آمن وعمل صالحًا، وبدهي أنّ مَن اتصف بهذا لا يماري في أن رزق الْجنة لا يسوقه إليه إلا مَن آمنوا به _سبحانه_ وابتغوا وجهه بأعمالهم الصالحة؛ ولهذا، فإنهم لا يفتقرون إلى تعيين مَن يرزقهم في الجنة ويؤتيهم من فضله؛ لأنه متعيَّن عندهم على وجه الحقيقة واليقين.

كما تجد أن بناء تلك الأفعال: ﴿رُزِقُواْ، رُزِقۡنَا، وَأُتُواْ﴾ لما لم يُسم فاعلها قد انبثق ونتج _أيضًا_ عن العلاقة الوطيدة والاتصال الظاهر والآصرة القوية التي تجمع بين هذه الآية وما ورد قبلها، وهو قوله تعالى: ﴿وَإِن كُنتُمۡ فِي رَيۡبٖ مِّمَّا نَزَّلۡنَا عَلَىٰ عَبۡدِنَا فَأۡتُواْ بِسُورَةٖ مِّن مِّثۡلِهِۦ وَٱدۡعُواْ شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ٢٣ فَإِن لَّمۡ تَفۡعَلُواْ وَلَن تَفۡعَلُواْ فَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ ٱلَّتِي وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُۖ أُعِدَّتۡ لِلۡكَٰفِرِينَ ٢٤﴾، من حيث إن الحديث قد انتهى في شأن هاتين الآيتين عند بيان العقاب الأخروي الذي أُعد لِمن أصروا على غيّهم واستكبارهم، ولا يُماري عاقل منصفٌ أن هذا العقاب لا يملك إنزاله إلا قيوم السموات والأرض _سبحانه_، ولهذا بني الفعل _أيضًا_ في قوله تعالى: ﴿أُعِدَّتۡ لِلۡكَٰفِرِينَ ٢٤﴾ لِما لم يُسم فاعله. ومن هنا يتفجر الْمعنى الذي لأجله بُنيت هذه الأفعال: ﴿رُزِقُواْ، رُزِقۡنَا، وَأُتُواْ﴾ لما لم يُسم فاعلها في الآية موطن الشاهد، وهذا الْمعنى هو تعيُّن الفاعل فيها جميعًا، إذ هو الْملك _سبحانه_، مع عدم وجود مُقتضى يُسوّغ العدول عن ذلك في هذا السياق. وهذا الْمعنى يتناسب تمام الْمناسبة مع ما ختمت به الآية السابقة، وهو قوله تعالى: ﴿فَإِن لَّمۡ تَفۡعَلُواْ وَلَن تَفۡعَلُواْ فَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ ٱلَّتِي وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُۖ أُعِدَّتۡ لِلۡكَٰفِرِينَ ٢٤﴾؛ لأن مَن تعيَّن في حقه أنه يملك إعداد النار لمن عصاه يتعيّن في حقه كذلك أنه قادر _لا محالة_ على إنزال شتى سبل النعيم والإكرام على مَن أطاعه _سبحانه_ وسلك السبيل الموصل إلى هداه،

وخاصة أن تلك الآلاء كانت في سياق الحديث عن نعيم أهل الجنة، الذي لا يشك أحدٌ من المؤمنين الذين بشّرتهم تلك الآية في أن الذي ساقه لهم هو الجليل _سبحانه_.

كما يتبين _أيضًا_ لمن يتتبع سياقات ذِكر فعل الرزق في القرآن الْمجيد أن بناءه وكذا فعل الإيتاء لِما لم يُسم فاعلهما طريقة من الصياغة مُطردة في جميع الْمواطن التي ساقت شيئًا من النعيم الذي أعدّه الله _سبحانه_ لأهل الجنة؛ وذلك لأنهم موقنون تمام اليقين أن إيتاء هذا الرزق إنما كان ممن آمنوا به _سبحانه_ إيمانًا يقينيًّا لا يزول عنهم ولا يبرح مكانه من قلوبهم؛ ولهذا، فإن المتفضل عليهم بذلك متعيَّن عندهم لا يحتاج إلى تعيينٍ. فمما ورد معه فعل الرزق على تلك الصياغة قوله تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ (آل عمـــران: ١٦٩)، وقوله تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا ۖ وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ (غافر: ٤٠)، وجميع السياقات التي تناولت الحديث عن نعيم أهل الجنة تسير على هذه السبيل من الصياغة. ومما ورد معه فعل الإيتاء على تلك الطريقة من التعبير _أيضًا_ قوله تعالى: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا۟﴾ (القصص: ٥٤).

والمنعم نظره كذلك في الْسياقات التي ذكرت نعيم أهل الجنة مُقابلاً إياها بالسياقات التي أوردت رزق أهل الدنيا يقف على أن بناء فعل الرزق لما لم يُسم فاعله يتباين في هذين الْمقامين تمام التباين، وبيان ذلك أنه كما اطّرد بناء الفعل لِما لم يُسم فاعله إذا كان الرزق مسوقًا لأهل الجنة فإن طريقة التعبير التي عُبر بها عن فعل الرزق في الْمقامات التي أوردت رزق الدنيا بُني فيها فعل الرزق لفاعله الحقيقي وهو الله _سبحانه_ دون أن يتخلف عن ذلك أي موضع من القرآن المجيد، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿زُيِّنَ

لِلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَيَسْخَرُونَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ فَوْقَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ وَٱللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ (البقرة: ٢١٢)، وقوله تعالى: ﴿ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ۚ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ ۚ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴾ (يونس: ٣١)، وقوله تعالى: ﴿أَمَّن يَبْدَؤُاْ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قُلْ هَاتُواْ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ (النمل: ٦٤)، وقوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ ۚ هَلْ مِنْ خَٰلِقٍ غَيْرُ ٱللَّهِ يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴾ (فاطر: ٣)، وقوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ لَطِيفٌۢ بِعِبَادِهِۦ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ ۖ وَهُوَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْعَزِيزُ﴾ (الشورى: ١٩). وفي بناء الفعل لفاعله الحقيقي _سبحانه_ في تلك السياقات إشارات لطيفة، منها: بيان أن مَن رزق الأنام هو الذي له حق الألوهية والإفراد بالعبادة الحقة دون سواه؛ ولأجل هذا، فإن الْمواطن كلها التي سيق فيها أمر رزق الدنيا قُرِن معها ما يُنبّه إلى العبادة أو الوحدانية، كما هو جليٌّ في الشواهد الْمذكورة سلفًا وغيرها؛ ومن الْحكم الجليلة التي تظهر للمتأمل في هذا الْمعنى: بيانُ أن نِعم الله _سبحانه_ إنما تُساق ليُستعان بها على طاعته _سبحانه_، فإذا اتُّخِذت مطية لمعصيته فإنها تكون حينئذ قد استُعملت في غير الوجهة التي وُجدت لأجلها، وبذلك يُوشك أن يُجرّ الوبال والخزي على صاحبها، ويُعرَّض لِما لا يقوى على مجابهته؛ فحاشاه _سبحانه_ أن يرضى بالبقاء على نعمةٍ يرزقها عبادَه ليستقووا بها على مبارزته دائمًا بالمعاصي.

كما يُفهم _أيضًا_ من اقتران رزق الدنيا في القرآن المجيد بطاعته _سبحانه_ أنّ مَن وهب تلك الأرزاق هو الخليق بأن يُدان له بالطاعات ويُقبَل عليه بصالح العبادات. يعلم ذلك علم اليقين مَن له أدنى مُسكَة من عقل، ولكنها اللجاجة في الباطل التي تجر على مَن يتمادى فيها ويلات الفتن والْشقاء والْمحن.

ولهذا، فإن الْمتتبع لمواطن النّعم الدنيوية كلِّها الْمسوقةِ في القرآن الكريم يجد أنها قد قُرِن معها دائمًا ما يُذكّر بعبادة الله _سبحانه_ ، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ نَبَاتَ كُلِّ شَىْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا وَمِنَ ٱلنَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّٰتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ ۗ ٱنظُرُوٓا۟ إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَيَنْعِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكُمْ لَـَٔايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ (الأنعام: ٩٩)، وقوله تعالى: ﴿ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ۚ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ ۚ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣١﴾ فَذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمُ ٱلْحَقُّ ۖ فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ ۖ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ﴾ (يونس: ٣١، ٣٢)، وقوله تعالى: ﴿ وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ أَعْرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ ۖ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ كَانَ يَـُٔوسًا ﴾ (الإسراء: ٨٣).

كذلك، فمن الإشارات التي تكمن وراء بناء الفعل للفاعل في سياقات رزق الدنيا الْمذكورة سلفًا؛ بيان أن الناس ليسوا على درجة واحدة من الإيمان اليقيني بشأن الرّزق؛ فمنهم مَن هو متوقف أو متلجلج ومتردّد في أمره، ومنهم ما هو مذبذب لا يدرى ما يصنع. بل منهم مَن قد يُفتن في أمر الرزق، ويخاف على مَن يَعُولُ؛ لذلك قال تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُمْ مِّنْ إِمْلَٰقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ ﴾ (الأنعام: ١٥١)؛ ففي بناء فعل الرزق لفاعله الحقيقي تثبيتٌ لليقين في الصدور، وبثٌّ للثقة فيما عند الجواد _سبحانه_؛ ليُعلم يقينًا أن من الخطر العظيم أن يُظنَّ أن حياة الأولاد تأخذ من الأقوات أو تُنقصها؛ ولهذا، بُني الفعل للفاعل الْمُعظَّم (نحن) العائد على الرزاق _سبحانه_ في هذا السياق الْمذكور سلفًا على نحوٍ من الصياغة لم يرد في

القرآن الْمجيد كله إلا في آيات معدودات[1]، اثنتان منها تحدثتا عن رزق الأولاد، وتحريم قتلهم مظنة كونهم جالبين العوز والإملاق؛ تعظيمًا لحرمة الدماء، وخاصة إذا كان الإثم مُوجّها إلى مَن له حقُّ الرعاية وحسن الحفظ.

لكنْ، إذا كان ذلك إنما كان لبث الطمأنينة في النفوس فلماذا ذُكر فاعل الرزق مُعظّمًا في سياق الحديث مع _النبي صلى الله عليه وسلم_ الذي علّم أتباعه اليقين فيما عند الله _سبحانه_، حيث يقول تعالى: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَوٰةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا ۖ لَا نَسْـَٔلُكَ رِزْقًا ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكَ ۗ وَالْعَٰقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ (طـــــه: ١٣٢)؟ والمتدبر لسياق هذه الآية يجد أن في بناء الفعل للفاعل مُعظّمًا فيه طمأنةٌ لقلبه _صلى الله عليه وسلم_ وإذهابٌ لرُوعه، وإدخالٌ للسرور على قلبه، وإيناسه، وخاصة أن الآية قد وردت في سياق الحديث عمّن ناصبوه العداء، وأعرضوا عما معه من الحقّ؛ حيث يقول جلّ شأنه _قُبيل هذا الآية_: ﴿ فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا ۖ وَمِنْ ءَانَآئِ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ ٱلنَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ ﴿١٣٠﴾ وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴿١٣١﴾﴾.

ومما هو ملاحظ _أيضًا_ في طرائق التعبير التي أوردت معنى الإيتاء الكائن منه _سبحانه_ أنّ جميع الْمواضع التي تحدّث فيها القرآن الكريم عن إيتاء الفضل في الدنيا لجميع الأنام فيها الفعل للفاعل صراحة ولم يُحذف من أيِّها قطّ إذا ورد التركيب على صيغة الفعل، كما إن التعبير إذا ورد على صيغة الاسم ففي جميع أحواله يُشار إلى صاحب هذا الفضل

(١) الآيات التي ورد فيها فعل الرزق مع الضمير: (نحن) العائد على الجليل _سبحانه_ ثلاث، أولاها_ آية (الأنعام: ١٥١) المذكورة سلفًا. وثانيها_ آية: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَٰقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ ۚ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْـًٔا كَبِيرًا﴾ (الإسراء:٣١). وآخرها_ آية سورة (طه: ١٣٢) المذكورة سلفًا.

وهو الكريم _سبحانه_ على تباين طرائق التعبير في ذلك، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ هُوَ خَيْرًا لَّهُم ۖ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ ۖ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا۟ بِهِۦ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ (آل عمران: ١٨٠)، وقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبُخْلِ وَيَكْتُمُونَ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۗ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا﴾ (النساء: ٣٧)، وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا۟ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ سَيُؤْتِينَا ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَرَسُولُهُۥٓ إِنَّآ إِلَى ٱللَّهِ رَٰغِبُونَ﴾ (التوبة: ٥٩)؛ تعظيمًا للْمنة، وتذكيرًا بحق الواهب _سبحانه_ على خلقه، من حيث شكره وحمده وحسن عبادته.

ثم تتأمل في بعض السياقات فتجد أن الغرض من ذِكر مُؤتي الفضل وواهبه _سبحانه_ كان لإظهار ضعف حيلة هذا الإنسان الْمُعطَى؛ ترهيبًا للنفوس من الإمساك خشية أن ينْزع واهب الفضل ما وهب، كما هو ظاهر من سياقات الآيات المذكورة سلفًا وغيرها.

_ومن الأفعال التي بُنيت لِما لَم يُسم فاعلها في مقامات الترغيب _أيضًا_ الفعل: ﴿يُقْتَلُ﴾، الوارد في الآية الكريمة: ﴿وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَن يُقْتَلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتٌۢ ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ وَلَٰكِن لَّا تَشْعُرُونَ﴾ (البقرة: ١٥٤)[(١)].

وعند الرجوع بهذا الفعل: ﴿يُقْتَلُ﴾ إلى فاعله في هذا السياق يتبين أنه عائد على الْمقاتلين الذين يحادّون الله _تعالى_ ورسوله _صلى الله عليه وسلم_ .

(١) ما ورد في هذا الآية مما يتعلق بالنهي عن إطلاق لفظ الميت على مَن قُتل في سبيل الله _تعالى_ لا يقتصر على وقت معين أو زمن محدد، بل يعم هذا النهي ليشمل كل حال تنبطق عليها تلك الصفة الْمذكورة، وهي القتْل في سبيل الله _تعالى.

أما عن الغرض الذي يقف خلف عدم ذكر هذا الفاعل وبناء الفعل: ﴿يُقْتَلُ﴾[1] لِما لَم يُسم فاعله في هذا السياق فربّما كان الغضَّ من قدر هذا الفاعل، وتهوين خطره، وإظهار أنه لا يملك لنفسه ولا لغيره نفعًا ولا ضرًّا إلا أن يشاء الله _تعالى_؛ فكل ما ينشأ من قتلٍ ونحوه إنما يقع بقضاء الله _سبحانه_ وقدره؛ ولذلك، فإن فاعل القتل هذا لم يرد مذكورًا في أيٍّ من آيات القرآن الكريم التي ساقت جزاء الشهداء عند ربهم، ومن ذلك آية (سورة آل عمران: ١٦٩) الْمذكورة سلفًا، وقوله تعالى: ﴿وَلَئِن قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ (آل عمران: ١٥٧)، وقوله تعالى: ﴿فَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ وَأُخْرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِمْ وَأُوذُواْ فِي سَبِيلِي وَقَٰتَلُواْ وَقُتِلُواْ لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ثَوَابًا مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ (آل عمران: ١٩٥)، وقوله تعالى: ﴿وَمَن يُقَٰتِلْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ (النساء: ٧٤)، وقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوٓاْ أَوْ مَاتُواْ لَيَرْزُقَنَّهُمُ ٱللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾ (الحج: ٥٨)، وقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَٰلَهُمْ﴾ (محمد: ٤)، وجميع الآيات التي تناولت هذا المعنى قد نحت به هذا الْمنحى من الصياغة.

(١) حين تراجع كتب التفسير القرآني التي كانت عناية مؤلفيها مُنصبة على إظهار بلاغته تجد أنها _على حد اجتهادي_ لَم تتحدث عن أثر السياق على تكوُّن بناء هذا الفعل لِما لم يُسم فاعله، ولم تُظهر كذلك بلاغة صياغته على هذا النحو.
ومن ذلك، ينظر: تفسير الراغب الأصفهاني:١/٣٤٧. والكشاف عن حقائق غوامض التنزيل:١/٢٠٦. والتفسير الكبير:٤/١٢٥. ونظم الدرر في تناسب الآيات والسور:٢/٢٥٠. والتحرير والتنوير:٢/٥٣.

ثم إن وقفة متأنية مع هذا السياق _محل الشاهد_ تُظهر لك جليًّا أن بناء هذا الفعل: ﴿يُقَتَلُ﴾ لِما لم يُسم فاعله قد هيّأ له ما ذُكر قبلُ من النهي الوارد في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقُولُواْ﴾؛ لأن من البيّن جليًّا أنّ الذي له حق الأمر والنهي _سبحانه_ حتى في أقلّ الأشياء، من حيث القول أو عدمه، لا يصدر شيءٌ في هذا الوجود إلا إذا شاء وقضى، وخاصة أمر القتل، الذي قد يتصور ضعاف القلوب من غير أتباع الحنيفيّة أنهم هم مَن سلبوا القتلى أرواحهم، ومنعوا عنهم حقهم في الحياة!

ولعل النهي الوارد في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقُولُواْ﴾ مما قد ساعد على فهم المعنى الوارد سلفًا من بناءِ الفعل: ﴿يُقَتَلُ﴾ لِما لم يُسم فاعله، وهو: الغضّ من قدر هذا الفاعل، وتهوين خطره، وإظهار أنه لا يملك لنفسه ولا لغيره نفعًا ولا ضرًّا؛ من حيث إن ما نُهي عنه في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقُولُواْ﴾ لَما كان صادرًا منه _سبحانه_ كان لزامًا ألا يُذكر في رحاب عظمته مَن كانوا سببًا في قتل أوليائه وأحبابه؛ فذِكرهم _حتى في حال نسبةِ الباطل إليهم_ قد يمنحهم تكريمًا أيما تكريم، يجعل منهم مَن ينتفخ مزهوًّا رافعًا قدر نفسه، مباهيًا بذلك؛ لأنه قد يُخيّل إليه أنّ له من السلطان أو القوة ما يُجرّؤه على التطاول والتعاظم على مَن يخالفونه معتقدًا ومنهجًا؛ ولهذا، كان بناء الفعل: ﴿يُقَتَلُ﴾ في هذا السياق لِما لَم يُسم فاعله فيه حطٌّ من قدْر هؤلاء الْمُعادين، وحدٌّ من قوتهم، وإضعافٌ لمقدرتهم على النَّيل من أيّ أحد إلا إذا قضى الله _تعالى_ هذا الأمر وأراده. وفي هذا طمأنةٌ للموَحّدين بأن عدوّهم لن يستطيع أن ينال منهم إلا إذا أراد مَن يُقاتلون في سبيل إعلاء كلمته _سبحانه_، فعليهم أن يهابوه هو، في غير فتور أو توانٍ عن القيام بأسباب النصر الْمادية حقّ القيام.

_ومما بني لِما لم يُسم فاعله في مقامات الترغيب _أيضًا_ الفعل: ﴿أُحِلَّ﴾، الوارد في الآية الكريمة: ﴿أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ ٱلصِّيَامِ ٱلرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَآئِكُمْ ۚ هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ﴾[1] (البقرة: ١٨٧).

ومعلوم علمًا يقينيًّا أن فاعل التحليل على وجه الحقيقة هو الله _سبحانه_. وفي بناء الفعل: ﴿أُحِلَّ﴾ لِما لم يُسم فاعله في هذا السياق إشعار بتعيُّن الفاعل حقيقة ووضعًا، مع انتفاء وجود مُقتضى يُسوّغ العدول عن ذلك؛ لتفرده _سبحانه_ بهذا الْحق لا ينازعه في إمضائه منازع، ولا يشاركه فيه شريك؛ ولهذا، فإن الْمتتبع لمواضع التحليل في القرآن الْمجيد يجد أن أكثرها بُني فيها فعل التحليل لما لم يُسم فاعله، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَآ أُحِلَّ لَهُمْ ۖ قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ ۙ وَمَا عَلَّمْتُم مِّنَ ٱلْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ ٱللَّهُ﴾ (المائدة: ٤)، وقوله تعالى: ﴿أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ ٱلْبَحْرِ وَطَعَامُهُۥ مَتَٰعًا لَّكُمْ وَلِلسَّيَّارَةِ ۖ وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ ٱلْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرُمًا ۗ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ (المائدة: ٩٦).

وإنما ذُكر فاعلٌ للتحليل في كتاب الله _سبحانه_ ولكن في سياقات يسيرة، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ ٱلرِّبَوٰا۟ لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِى يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيْطَٰنُ مِنَ ٱلْمَسِّ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوٓا۟ إِنَّمَا ٱلْبَيْعُ مِثْلُ ٱلرِّبَوٰا۟ ۗ وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلْبَيْعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰا۟﴾ (البقرة: ٢٧٥)؛ ولعل الفاعل قد ذُكر هنا لأن هذا السياق فيه ابتداءُ تحريمِ الربا، وبيان خطره على النفوس، فكان حريًّا أن يُبيّن للمكلَّفين بيانًا جليًّا أنه _سبحانه وتعالى_ هو وحدَه الذي له حق التّحليل والتحريم؛ ولهذا، نقض النظم الحكيم ما قالوه، وأبدى زيف ما اعتقدوه، وأبان

(١) ﴿أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ ٱلصِّيَامِ﴾ الآية. كان في ابتداء الإسلام لا تحلُّ المجامعة في ليالي الصَّوم ولا الأكل ولا الشُّرب بعد العشاء الآخرة؛ فأحلَّ الله _تعالى_ ذلك كلَّه إلى طلوع الفجر. _الوجيز في تفسير الكتاب العزيز: ١٥٢.

أنه لن يُقبل منهم هذا التأسيس الذي أقاموا عليه معاملاتهم؛ لخطر أمر الربا الْمحدق وسطوة آثاره البالغة.

كما ذُكر الفاعل _أيضًا_ في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُحَرِّمُواْ طَيِّبَٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمۡ وَلَا تَعۡتَدُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُعۡتَدِينَ﴾ (المائـــدة: ٨٧). أما هذه الآية فذُكر فيها فاعل التحليل عند قوله تعالى: ﴿لَا تُحَرِّمُواْ طَيِّبَٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمۡ﴾، وأوثـر أن يكـون مُعبَّـرًا عنـه بلفـظ الجلالـة؛ لبيـان أنّ هـذا المعنـى مُقتضَـى أصـيلٌ من مُقتضيات الألوهيـة، التـي عُبر عنهـا فـي هذا السياق بلفظ الجلالـة؛ ليُعلَم أنْ ليس للمذكورين الحق فـي تحريم مـا أحلّـه _سـبحانه_ حتـى إن اتصـفوا بكـونهم مـؤمنين بـه _سـبحانه_؛ لأن صـفة الإيمان مع أنها ترفع قدرهم وتُعلى مكانتهم عند خالقهم، بيْد أنها لا تعطيهم الحق فـي أن يتجـاوزوا حدوده _سبحانه_ ويعتدوها؛ ولذلك، فإن من يجيل فكره فيما استهلت بـه الآيـة الْمذكورة سلفًا من نداء مُوجّـه لأهل الإيمـان: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾، يعلم علمًا لا يعترضُه شك أنّ ذِكر فاعل التحليل في هذا السياق إنما كان ناشئًا عن هذا الْمعنى الْمتقدم الْمذكور في مُستهل تلك الآيـة، لا يغيـب عنـه، ولا يتخلـف؛ وبيـان ذلـك: أن الْمؤمنين الـذين توجَّـهت إليهم الآيةُ بالنداء والنهي لَما كان من دأبهم أنهم إذا ذُكِّروا بالله _سبحانه_ تذكّروا، كان حريًّا أن يُسمّى لهم الفاعل صراحة؛ حتى يكون ذلك دافعًا لهم ومحفزًا على الامتثال إلى هذا النهي والرضى بمآله ومقتضاه.

ومَن يتدبّر قولـه تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَحۡلَلۡنَا لَكَ أَزۡوَٰجَكَ ٱلَّٰتِيٓ ءَاتَيۡتَ أُجُورَهُنَّ وَمَا مَلَكَتۡ يَمِينُكَ مِمَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَيۡكَ﴾ (الأحزاب: ٥٠)، يقف على أن فاعل التحليل، وهو الجليل _سبحانه_، قد ذُكر في هذا السياق _أيضًا_ عند قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَحۡلَلۡنَا لَكَ أَزۡوَٰجَكَ﴾ مُعَظَّمًا بنون التعظيم مرتين؛ حتى يُخلع على هذا التحليل معنى التعظيم، الذي يُعرفُ قدرُه بمعرفة قدر معطيه وواهبه _سبحانه_. ولعل في هذا التعظيم ما يدفع وجوه التدليس والادعاءات

التي افتراها الْمغرضون عن شأن تعدد زوجاتِ الْمعصوم _صلى الله عليه وسلم_، الذي استنكره أعداء الدين، وانهالوا عليه طعنًا بسبب ذلك، حتى ألصقوا به الشبه الباطلة زورًا وبهتانًا؛ تنفيرًا للناس منه. ولكن، أنَّي لهم ذلك؟! فمما يقضي كل القضاء على تلك الادعاءات أنْ يَعلم الْمُنصِف ذو العقل الْمميِّز أنّ الجليل _سبحانه_ هو الذي أحل ذلك للنبيّ _صلى الله عليه وسلم_؛ فمَن أنِس من نفسه قوةً تحضّه على منع شيء أراده الله _تعالى_ وأمضاه فليكشف عن حاله؛ ولهذا، ورد ضمير الجمع على جهة التعظيم مرادًا به الجليل _سبحانه_ مرتين في قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَحۡلَلۡنَا﴾، كما أوثر التعبير عنه _صلى الله عليه وسلم_ بلفظ: ﴿ٱلنَّبِيُّ﴾؛ تخلُّصًا من هذا التدليس الذي افتراه أولئك المفسدون والعابثون، حتى يُعلم يقينًا أن ذلك إنما كان بوحيٍ منه _سبحانه_ لعلّة يقتضيها أمر النبوة ويتطلَّبها؛ من حيث إعانته _صلى الله عليه وسلم_ على تحمّل أعبائها، وتبليغها على نحوٍ يضمن توطيد شأنها، وتثبيت أركانها، إلى غير ذلك من العلل التي ارتضاها _سبحانه_، مما قد تقصر عنه المدارك، ولا تكاد تحيط به العقول. ثم إن أمرًا قد قضاه الله _سبحانه_ لنبيه _صلى الله عليه وسلم_ الذي أرسله ليكون سببًا في إصلاح الأمة وهدايتها، فيتجنب أفرادها ما يكون سببًا في هلاكهم وشقاوتهم، أيسوغ أن يكون فيه المخالفة لِما أرسله _سبحانه_ به؟!

وحين تقف إزاء معنى التعظيم الوارد في مستهلّ الآية، وذلك عند قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَحۡلَلۡنَا﴾، فتكاد لا تبرح مكانك حتى تُوقن تمام اليقين أن هذا المعنى قد انساب ونبع من معينِ ما قد سلف تلك الآية، وذلك عند قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نَكَحۡتُمُ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ ثُمَّ طَلَّقۡتُمُوهُنَّ مِن قَبۡلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ فَمَا لَكُمۡ عَلَيۡهِنَّ مِنۡ عِدَّةٖ تَعۡتَدُّونَهَاۖ فَمَتِّعُوهُنَّ وَسَرِّحُوهُنَّ سَرَاحٗا جَمِيلٗا﴾ (الأحزاب: ٤٩)؛ من حيث إن هذه الآية لَمّا كانت بيانًا لتشريعٍ جليل الشأن، عظيم القدْر، يسد ذرائع الخطر الْمرتقب، ويرفع كذلك الأذى الذي قد ينجم

إذا لَم تُرأب صدوع هذا السّراح، ويقوم مقامه الْمعروف وبذلُ الإحسان _كانت الأفئدة إلى تعظيم مَن شرَع ذلك أميلَ، والأذهانُ لإقرار ما يُشرِّع أفهمَ، والنفوس إلى الإذعان لكل ذلك أسرع؛ لأنها قد جُبلت على تعظيم مَن يجلب لها أسباب نفعها، ويرفع عنها ما مِن شأنه ضرّها وإهلاكها؛ ولهذا، كان التعظيم الذي سِيق في مستهلّ آية: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَحۡلَلۡنَا لَكَ ﴾ الواردة بعدها، متلائمًا تمام التلاؤم مع ما ورد قبلها من معانٍ وأحكام.

أما ذِكرُ فاعل التحليل، وهو الله _تعالى_، في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَۖ تَبۡتَغِي مَرۡضَاتَ أَزۡوَٰجِكَۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ (التحريم: ١)، وإيثارُ التعبير عنه بلفظ الجلالة، فكان لبيان أنّ مَن له الألوهية الْحقة هو الذي له أنْ يُحرّم أو يُحلّل على الإطلاق، أما غيره _سبحانه_ فلا يملك أيَّ شيء من ذلك إلا بوحي منه وحده _جل جلاله_، أما ما عدا الوحي فلا، حتى إن كان ذلك صادرًا عن خير خلق الله _سبحانه_ أجمعين، وهو الْمعصوم _صلى الله عليه وسلم_، ولأجل ذلك الْمعنى وُصف بصفة النبوة في هذه الآية وسابقتها الْمذكورة سلفًا، وهي قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَحۡلَلۡنَا لَكَ أَزۡوَٰجَكَ ٱلَّٰتِيٓ ءَاتَيۡتَ أُجُورَهُنَّ ﴾ (الأحزاب: ٥٠).

وحين تجيل فكرك في الفعل محل الشاهد: ﴿أُحِلَّ﴾[1]، الوارد في هي قوله تعالى: ﴿أُحِلَّ لَكُمۡ لَيۡلَةَ ٱلصِّيَامِ ٱلرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَآئِكُمۡۚ هُنَّ لِبَاسٞ لَّكُمۡ وَأَنتُمۡ لِبَاسٞ لَّهُنَّۗ﴾ (البقرة: ١٨٧)، وتتدبر السياق الوارد فيه دون معزل عما ذُكر

(١) حين تراجع كتب التفسير القرآني التي كانت عناية مؤلفيها مُنصبة على إظهار بلاغته تجد أنها _على حد اجتهادي_ لَم تتحدث عن أثر السياق على ترجيح بناء هذا الفعل لِما لم يُسم فاعله، ولم تُظهر كذلك بلاغة صياغته على هذا النحو.
ومن ذلك، ينظر: تفسير الراغب الأصفهاني:٣٩٧/١. والكشاف عن حقائق غوامض التنزيل:٢٢٩/١. والتفسير الكبير:٢٦٧/٥. ونظم الدرر في تناسب الآيات والسور:٧٧/٣. والتحرير والتنوير:١٨٠/٢.

قبله من آيات الذّكر الحكيم، الواردة عند قوله تعالى: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ ۚ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ ۖ وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ ۗ يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا۟ ٱلْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا۟ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٨٥﴾ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ ۖ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ۖ فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لِى وَلْيُؤْمِنُوا۟ بِى لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴿١٨٦﴾﴾، يظهر لك أن العدول بالنظم إلى بناء الفعل لما لم يُسم فاعله في قوله تعالى: ﴿أُحِلَّ لَكُمْ﴾ كان ناشئًا عما سِيق قبله من معانٍ أثبتت ثبوتًا راسخًا لا يدع مجالا لمرتاب تعيُّنَ فاعلِ التحليل في هذا السياق على وجه الحقيقة؛ لأنّ الذي أوجب الواجبات الْمذكورة سلفًا في الآيات المتقدمة لا يُماري عاقل في خلوص حق التحليل له خلوصًا صافيًا، مبرّأً عن أي شائبة من شرك أو نَقْص؛ ولهذا عدل النظم في هذا السياق إلى عدم ذِكر الفاعل؛ لأن تلك الْمعاني الْمتظاهرة قد تآزرت لتقيم منارات تضيء سبيل الإقناع، الْموصّلة إلى البراهين الْمتضافرة التي تُرسِّخ وجود هذا الْمسند إليه في الأذهان، لا يحيد عنها، ولا يبرحها، مما جعل الفعل: ﴿أُحِلَّ﴾ غيرَ مفتقر إلى ذِكر الفاعل معه وإعادته مرة أخرى.

كما ينجلي لك _أيضًا_ أنّ الْمعنى البلاغي الذي أنارت سبيله هذه الآية محل الشاهد وكشفت الْحُجُب دونه، وهو تعيّن الفاعل في ذلك حقيقة ووضعًا، قد نشأ عما سلفها _أيضًا_ من آيات بينات تؤصِّل تشريعاتٍ، لا يستطيع فرضها وإيجابها إلا مَن ثبت في حقه أنه يقدر على إجابة دعوة الداعي إذا دعاه؛ لأن مَن ملك ذلك يعلم ما يُصلح عباده فيُحلّه لهم، وما يفسد حياتهم فيحرّمه عليهم، ويحذرهم من مغبة الوقوع فيه. وبهذا يُصبح يقينًا جازمًا أنّ من له حق التشريع يتعيّن في حقه التحليل والتحريم لا ينازعه في ذلك أحد. ويزداد البرهان على صحة هذا الْمعنى وضوحًا أنْ تعلم أنّ

الخطاب في هذه الآية وما سلفها قد كان لأهل الإيمان، الذين لا تخالجهم الظنون التي تقطع عليهم الإذعان الخالص لمولاهم، ولا يعتريهم ما يحملهم على عدم الإقرار له _سبحانه_ بأنه أهلٌ لأنْ يُشرّع كل التكاليف الواردة فيما سلف من آيات الذّكر الحكيم.

_ومما بُني لما لم يُسم فاعله _أيضًا_ في مقامات الترغيب الفعلُ: ﴿أُنزِلَ﴾، الوارد في قوله تعالى: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ﴾ (البقرة: ١٨٥).

وعند التأمل في هذا الفعل: ﴿أُنزِلَ﴾ تعلم يقينًا أن فاعله على وجه الحقيقة هو الجليل _سبحانه_. ولعل الغرض من بنائه لِما لَم يُسمّ فاعله في سياقه هذا كان للعلم بِمُنْزِل القرآن الكريم، وتعيُّنه عند أهل الإنصاف حقيقة ووضعًا؛ إذ هو الله _سبحانه وتعالى_، ومما يؤيد هذا الْمعنى عدمُ إقدام أحدٍ يومًا مّا على أن يرتقي هذا الْمرتقى الذي يمتنع على أيٍّ من الأنام بلوغه، مُدعيًا لنفسه _ولو كذبًا_ إنزال هذا الكتاب العزيز.

كما ينجلي لك عند التأمل أنّ ما استُهلت به الآية مما ذُكر قبل هذا الفعل: ﴿أُنزِلَ﴾[1]، وذلك عند قوله تعالى: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ﴾ قد هيّأ لمعنى: تعيُّن الفاعل الذي فُهم من بناء الفعل: ﴿أُنزِلَ﴾ لِما لم يُسم فاعله؛ وذلك لأن صيام هذا الشهر الْمبارك مما اتُّفِق _أيضًا_ على تعيُّن مَن فرضه

(١) الذي يراجع التفاسير القرآنية التي كانت تُعنى بإبراز النكات البلاغية للنظم القرآني يُدرك أنها _على حدّ اجتهادي_ لم تذكر شيئًا عن العوامل التي هيّأت لبناء هذا الفعل لِما لم يُسم فاعله، كما لم تبحث كذلك عن السر البلاغي الذي يقف خلف عدم ذِكر فاعلٍ لهذا الفعل في سياقه هذا.
ومن ذلك، يُنظر: تفسير الراغب الأصفهاني:٣٩٢/١. والكشاف عن حقائق غوامض التنزيل:٢٢٨/١. والتفسير الكبير:٢٥٢/٥. ونظم الدرر في تناسب الآيات والسور:٥٦/٣. والتحرير والتنوير:١٦٩/٢.

وأوجبه _سبحانه؛ إذ لَم يأت أحد على مرّ العصور وكرور الأزمان قد ادّعى لنفسه أنه هو الذي فرضه، بل لم يُتقرب قطّ إلى معبود بتلك العبادة مما خلا الله _تعالى_.

كما أنّ من يتدبر السياق الوارد فيه هذا الفعل: ﴿أُنزِلَ﴾ بعين بصيرةٍ يُدرك أن هذا الْمقام ليس مقامَ إعلامٍ بِمُنْزل الكتاب، وإنما مقامُ بيانٍ لإنزال القرآن نفسه، وإرشادٍ الناسَ إلى منهجه السديد في إصلاح النفوس وتطهير القلوب؛ حتى إذا تمسكوا بما فيه استنقذوا أنفسهم من تلك الهوة السحيقة التي يقبعون فيها، وتلمّسوا في هدْيه سبيل النهوض من عثراتهم التي تعترضهم؛ حتى يستأهلوا التكريم الشريف من الْمولَى _سبحانه وتعالى_.

كما أنّ في عدم ذِكر فاعل الإنزال _أيضًا_ في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ﴾ إشارةً إلى أنّ الذين ادّعوا كذبًا أنّ بشرًا علّم النبيّ _صلى الله عليه وسلم_ ما جاء به من القرآن العزيز؛ حيث يقول الله _سبحانه وتعالى_: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ ۗ لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ﴾ (النحل: ١٠٣): إذا أمعنوا بصائرهم وعقولهم في هذا القرآن الْمجيد، متجردين من كل هوى، متلبسين بجميل الإنصاف من النفس؛ وقفوا على حشد هائل قد نُصب لهم من الأدلة الدامغة، والقرائن المتظاهرة، التي تتضافر على إثبات صدق هذا الحقّ الأبلج، مُقرّين أنه من الجليل _سبحانه وتعالى_ وحده، ولكنّه التّمادي في اللجاجة، وغلبة الهوى على طرائق التفكير، الذي يُنشئ المصاعب، ويثير الشبهات، ويضع في سبيل ذلك العقبات، ويتخذه المكابرون مطيّة للجدال المرير، والتعصب المقيت، الذي يُغيِّب الإنصاف عن كل حكم أو قضاء.

ولك أن تقرأ السياق الذي تقدّم هذا الفعل: ﴿أُنزِلَ﴾ حتى تقف على ما هيّأ لورود هذا الفعل مبنيًّا لِما لم يُسم فاعله؛ من حيث إنّ ما ذُكر قبلُ

من أحكام وواجبات، عند قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ﴾ (البقرة: ١٨٣)، وما قبله وما بعده، لَمّا كان الْمخاطبون به هم أهل التوحيد، ولم ينضم إلى ذلك غرض سياقي آخر يرجّح ذِكر الفاعل، لا جرم أُوثر عدم ذِكره هنا؛ وذلك لأنّ الْموحّدين كافّة يوقنون يقينًا لا شبهة فيه ولا مرية تعتريه أنه _تعالى_ هو وحده الْمتفضل عليهم بإنزال هذا القرآن المجيد.

ولكن، إذا كان الْموحّدون يوقنون يقينًا جازمًا أنّه _تعالى_ هو وحده منْزل الكتاب العزيز ولهذا لَم يُبْن فعل الإنزال لفاعله في السياق الْمذكور سلفًا وفي بعض السياقات الأخرى، فلماذا بُني هذا الفعل للفاعل وكان ذِكر الفاعل فيه بضمير الجمع: (نا) على سبيل التعظيم، في قوله تعالى:﴿إِنَّا نَحۡنُ نَزَّلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡقُرۡءَانَ تَنزِيلٗا﴾ (الإنسان: ٢٣)، على حين أن المخاطَب في هذا الْمقام هو سيد الْموحّدين _صلى الله عليه وسلم؟

ولعل الْمتأمل في سياق تلك الآية يُدرك أنّ تنْزيل القرآن الكريم الوارد فيها على سبيل التعظيم، الذي زخرت به الآية من بدايتها إلى نهايتها، له علاقة وطيدة بما سِيق قبله من معانٍ؛ إذ يقول _تعالى_ قبلُ: ﴿وَيَطُوفُ عَلَيۡهِمۡ وِلۡدَٰنٞ مُّخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيۡتَهُمۡ حَسِبۡتَهُمۡ لُؤۡلُؤٗا مَّنثُورٗا ﴿١٩﴾ وَإِذَا رَأَيۡتَ ثَمَّ رَأَيۡتَ نَعِيمٗا وَمُلۡكٗا كَبِيرًا ﴿٢٠﴾ عَٰلِيَهُمۡ ثِيَابُ سُندُسٍ خُضۡرٞ وَإِسۡتَبۡرَقٞۖ وَحُلُّوٓاْ أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٖ وَسَقَىٰهُمۡ رَبُّهُمۡ شَرَابٗا طَهُورًا ﴿٢١﴾ إِنَّ هَٰذَا كَانَ لَكُمۡ جَزَآءٗ وَكَانَ سَعۡيُكُم مَّشۡكُورًا﴾؛ ففي ذلك توجيهُ الأنظارِ إلى مُنْزل الكتاب العزيز _سبحانه؛ لِما للعباد من مسيس الحاجة إلى اصطحابِ عونه _سبحانه_ للظفر بِما ذُكر قبل هذه الآية من سكنى الجنان، وما ذُكر بعد هذه الآية عند قوله تعالى: ﴿فَٱصۡبِرۡ لِحُكۡمِ رَبِّكَ وَلَا تُطِعۡ مِنۡهُمۡ ءَاثِمًا أَوۡ كَفُورٗا ﴿٢٤﴾﴾، حيث الصبر على ملاقاة الأعداء، ومكائد الخصوم الألداء؛ إذ إنّ تلك الْمرتبة السّنية والعيشة الْمرضية في الجنة إنّما يهتدى العبد إليها ويبلغها

بمشيئته تعالى ورضاه حين يضع كلام مُنْزل هذا الكتاب العزيز _سبحانه_ نُصب عينيه، بحيث لا يحيد عنه، ولا يتنكّب عن سبيله.

وكذا، فإنّ الإتيان بفاعل التنْزيل في الآية المذكورة سلفًا: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ تَنزِيلًا﴾ (الإنسان: ٢٣) له صلة وثيقة بما ورد بعد هذه الآية من معنى، عند قوله _تعالى_ عقيبها: ﴿فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ ءَاثِمًا أَوْ كَفُورًا ﴿٢٤﴾﴾[1]؛ لأن ذلك مما يُعين على تثبيت فؤاده _صلى الله عليه وسلم_ على ما هو عليه من الحق في تبليغ دعوة ربه _سبحانه_ إلى الخلق؛ من حيث إنّ الغالب في أحوال مَن أخذوا على عاتقهم إرشاد الناس إلى صراط الله الْمستقيم أنْ قد تعنّ لهم مشاقّ وعوائق وشدائد ومحنٌ، قد يتجاوزونها حينًا وتصيبهم بفتور حينًا آخر، لأن الْمرء ربما ينخلع فؤاده ويُدمى قلبه مما قد يراه من تجبّر أرباب الإثم والكفور؛ ولهذا، كان خليقًا أن يُشدَّ من أزر تلك النفوس، وتُرشد إلى مَا يُقوّي أمرها، ويأخذ بأيديها، ويعاونها على مواصلة ما هي فيه من تبليغ رسالة الحقّ _سبحانه_؛ ولا شك أن تذكير النفوس بربّها _سبحانه_، وجعْلها وثيقة الصلة بكلامه _تعالى_ لخير ما يُعين على احتمال أي مصاعب في سبيل أداء تلك الواجبات، بأريحية بالغةٍ أقصى حدود غايتها، مما يساعد النفوس على النهوض بأعباء تلك الْمهمة

(١) يرى العلامة الرازي _رحمه الله_ في تأويل هذا النهي الوارد في الآية الكريمة رأيًا سديدًا؛ حيث يقول: "إنه _عليه الصلاة والسلام_ ما كان يطيع أحدًا منهم، فما الفائدة في هذا النهي؟

الجواب: المقصود بيان أن الناس محتاجون إلى مواصلة التنبيه والإرشاد، لأجل ما تركّب فيهم من الشهوات الداعية إلى الفساد، وأن أحدًا لو استغنى عن توفيق الله _تعالى_ وإمداده وإرشاده، لكان أحق الناس به هو الرسول المعصوم _صلى الله عليه وسلم، ومتى ظهر ذلك عرف كل مسلم أنه لا بد له من الرغبة إلى الله _تعالى_، والتضرع إليه في أن يصونه عن الشبهات والشهوات".

التفسير الكبير: ٣٠/ ٧٥٨.

السامية، منتهية إلى الدرجة العليا من الطمأنينة والابتهاج والرضى حال سيرها في هذه السبيل.

المبحث الآخَر: أثر السياق بلاغيًّا في تكوُّنِ الفعل الْمبني لِما لَم يُسم فاعله في مقامات الترهيب.

المتأمل في هذه السورة الكريمة يقف على كثيرٍ من الأفعال الواردة في مقامات الترهيب مبنية لِما لَم يُسم فاعلها، ومِن ثَم يطيب للباحث أن يقف معها مستجليًا بعض البواعث التي رجّحت الإتيان بهذه الأفعال على هذا النحو من الصياغة، شافعًا ذلك بما يُظهر مدى اتصال الأسلوب بِما ذُكر قبله من معانٍ كانت مُوطِّئةً لتكوّنه، وأثر ذلك في ترجيح الْمعنى البلاغي المراد.

_فكان مما بُني لِما لم يُسم فاعله في مقام الترهيب الأفعالُ الْمنفية: ﴿وَلَا يُقْبَلُ، وَلَا يُؤْخَذُ، وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾، من الآية الكريمة: ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا لَّا تَجْزِي نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ (البقرة: ٤٨)[1]، ثم إنك لا تلبث أن تقف على أن هذا الأسلوب الذي سيق على صيغة ما لم يُسم فاعله في قوله تعالى: ﴿وَلَا يُقْبَلُ، وَلَا يُؤْخَذُ﴾ إنما كان لتعيُّنه _سبحانه_ بهذين الْمعنيين حقيقة ووضعًا، مع عدم وجود

(١)﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا﴾: واحذروا واجتنبوا عقاب يومٍ، ﴿لَّا تَجْزِي﴾: لا تقضي ولا تُغني. ﴿نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ﴾، أي: لا يكون شفاعةٌ فيكون لها قبول؛ وذلك أنَّ اليهود كانوا يقولون: يشفع لنا آباؤنا الأنبياء؛ فآيسهم الله _تعالى_ عن ذلك. ﴿وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ﴾: فِداءٌ. ﴿وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾: يُمنعون من عذاب الله _تعالى_.
الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، أبو الحسن علي بن أحمد بن محمد بن علي الواحدي، النيسابوري، الشافعي (ت: ٤٦٨هـ): ١٠٤_ تح: صفوان عدنان داوودي، دار القلم، الدار الشامية، دمشق، بيروت، ط١، ١٤١٥هـ.

مُقتضى آخر يُجوّز العدول عن ذلك، وخاصة أن هذا السياق إنما يتحدث عن يوم القيامة، الذي لا هيمنة لأحد فيه إلا له _سبحانه وتعالى_ وحده.

ولذلك، فإنه لم يرد في القرآن الكريم كله مع مقامات نفي القبول فاعلٌ إذا كان السياق يتحدث عن يوم القيامة، وذلك كقوله تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ يَوۡمٗا لَّا تَجۡزِي نَفۡسٌ عَن نَّفۡسٖ شَيۡـٔٗا وَلَا يُقۡبَلُ مِنۡهَا عَدۡلٞ وَلَا تَنفَعُهَا شَفَٰعَةٞ وَلَا هُمۡ يُنصَرُونَ﴾ (البقرة: ١٢٣).

كما إن الْمتأمل كذلك يعلم أن نفي القبول لم يرد معه فاعل _أيضًا_ وإنما بُني فيه الفعل لما لم يُسم فاعله كذلك في السياقات التي يُخبَر فيها عن أحوال الْمكذبين والْمعرضين عما نزل من الذّكر، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ وَمَن يَبۡتَغِ غَيۡرَ ٱلۡإِسۡلَٰمِ دِينٗا فَلَن يُقۡبَلَ مِنۡهُ وَهُوَ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ﴾ (آل عمران: ٨٥)، وقوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَمَاتُواْ وَهُمۡ كُفَّارٞ فَلَن يُقۡبَلَ مِنۡ أَحَدِهِم مِّلۡءُ ٱلۡأَرۡضِ ذَهَبٗا وَلَوِ ٱفۡتَدَىٰ بِهِۦٓۗ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴾ (آل عمران: ٩١)، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡ أَنَّ لَهُم مَّا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا وَمِثۡلَهُۥ مَعَهُۥ لِيَفۡتَدُواْ بِهِۦ مِنۡ عَذَابِ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ مَا تُقُبِّلَ مِنۡهُمۡۖ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾ (المائدة: ٣٦)، وقوله تعالى: ﴿ قُلۡ أَنفِقُواْ طَوۡعًا أَوۡ كَرۡهٗا لَّن يُتَقَبَّلَ مِنكُمۡۖ إِنَّكُمۡ كُنتُمۡ قَوۡمٗا فَٰسِقِينَ ﴿٥٣﴾ وَمَا مَنَعَهُمۡ أَن تُقۡبَلَ مِنۡهُمۡ نَفَقَٰتُهُمۡ إِلَّآ أَنَّهُمۡ كَفَرُواْ بِٱللَّهِ وَبِرَسُولِهِۦ وَلَا يَأۡتُونَ ٱلصَّلَوٰةَ إِلَّا وَهُمۡ كُسَالَىٰ وَلَا يُنفِقُونَ إِلَّا وَهُمۡ كَٰرِهُونَ﴾ (التوبة: ٥٣، ٥٤)، ولعل معنًى آخر قد يُضاف إلى ما سلف ذِكره عن إيثار بناء فعل القبول الْمنفي لِما لم يُسم فاعله، وهو: تنْزيهُه _سبحانه_ وتقديسه عن أن يُذكر في موطن يُتمرّد فيه على الدين، ويُشق فيه عصا الطاعة، ويُعرض فيه عما أنزل من الآيات والذكر الحكيم؛ وتلك نتيجة طبعية ومقبولة لا نزاع فيها، بل لا يُنكرها أو يغفل عنها إلا مُعاند أو مُكابر؛ لأنهم لَمّا لم يُقبلوا عليه _سبحانه_ بالطاعة والعبادة واستنكفوا عن شرف الخضوع له أخزاهم بعدم الإقبال عليهم، والغض من

منْزلتهم التي كانوا يُنْزلونها لأنفسهم، وإسقاط كرامتهم بعدم ذكر اسمه _سبحانه_ مع معنى نفي التقبُّل منهم.

وفي مُقابل ذلك ترى أنه ما ورد فعل التقبّل أو القبول في سياق يتحدث عن أهل الطاعة إلا بُني معه الفعل لفاعله الحقيقي وهو الجليل _سبحانه_، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا ﴾ (آل عمران: ٣٧)، وقوله تعالى: ﴿ أَلَمْ يَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَأْخُذُ ٱلصَّدَقَٰتِ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ (التوبة: ١٠٤)، وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾ (المائدة: ٢٧)، وقوله تعالى: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَعْفُواْ عَنِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴾ (الشورى: ٢٥)، وقوله تعالى: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُواْ وَنَتَجَاوَزُ عَن سَيِّـَٔاتِهِمْ فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلْجَنَّةِ ۖ وَعْدَ ٱلصِّدْقِ ٱلَّذِى كَانُواْ يُوعَدُونَ ﴾ (الأحقاف: ١٦)؛ رضًى بحالهم، واحتفاءً بهم، واهتمامًا بصنيعهم.

ثم تجد أن آية: (سورة الْمائدة: ٢٧) الْمذكورة سلفًا، وهي قوله تعالى: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱبْنَىْ ءَادَمَ بِٱلْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ ٱلْأَخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ ۖ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾ قد سيق فيها فعل التقبل لِما لم يُسم فاعله في حالي الرضى عن العمل والسخط كذلك، ولعل نظرة متأنية في سياق الآية تهدي إلى أنّ بناء الفعل لما يُسم فاعله في سياق الرضى عند قوله تعالى: ﴿فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا ﴾ يُفيد العموم والشمول، لأن الفاعل في هذا السياق ليس خاصًّا بالله _تعالى_ وحده؛ فهو _سبحانه_ لَمّا تقبل هذا القربان أذِن للنار أن تتقبله كذلك. والله أعلم.

وعند الوقوف كذلك مع بناء فعل الأخذ الْمنفي في قوله تعالى: ﴿وَلَا يُؤْخَذُ ﴾ لِما لم يُسم فاعله تدرك أن ذلك كان لتعيّنه _سبحانه وتعالى_ بهذا الْمعنى حقيقة ووضعًا، وخاصة أنه ورد في سياق يتحدث عن يوم القيامة

الذي أمره كلّه لله _سبحانه_ وحده؛ ولذلك، فإنه لم يرد فاعلٌ لهذا الفعل المنفي في القرآن الْمجيد كله إذا كان الحديث عن هذا اليوم الْمشهود، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ وَذَرِ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَهُمۡ لَعِبٗا وَلَهۡوٗا وَغَرَّتۡهُمُ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَاۚ وَذَكِّرۡ بِهِۦٓ أَن تُبۡسَلَ نَفۡسُۢ بِمَا كَسَبَتۡ لَيۡسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيّٞ وَلَا شَفِيعٞ وَإِن تَعۡدِلۡ كُلَّ عَدۡلٖ لَّا يُؤۡخَذۡ مِنۡهَآۗ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أُبۡسِلُواْ بِمَا كَسَبُواْۖ لَهُمۡ شَرَابٞ مِّنۡ حَمِيمٖ وَعَذَابٌ أَلِيمُۢ بِمَا كَانُواْ يَكۡفُرُونَ ﴾ (الأنعام: ٧٠)، وقوله تعالى: ﴿فَٱلۡيَوۡمَ لَا يُؤۡخَذُ مِنكُمۡ فِدۡيَةٞ وَلَا مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۚ مَأۡوَىٰكُمُ ٱلنَّارُۖ هِيَ مَوۡلَىٰكُمۡۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ﴾ (الحديد: ١٥).

ثم إن بناء الفعل لِما لم يُسم فاعله في قوله تعالى: ﴿وَلَا هُمۡ يُنصَرُونَ﴾ من آية البقرة، محل الشاهد المذكورة سلفًا، وهي قوله تعالى: ﴿ وَٱتَّقُواْ يَوۡمٗا لَّا تَجۡزِي نَفۡسٌ عَن نَّفۡسٖ شَيۡـٔٗا وَلَا يُقۡبَلُ مِنۡهَا شَفَٰعَةٞ وَلَا يُؤۡخَذُ مِنۡهَا عَدۡلٞ وَلَا هُمۡ يُنصَرُونَ ﴿٤٨﴾﴾ فيه إيماءٌ إلى العموم والشمول الذي يتناول جميع الأنام الذين يعجزن عن نصرة مَن خذلهم الله _سبحانه_؛ لذلك، فإن المواضع جميعها التي سيقت لبيان انعدام النصير والْمُعين عن أهل الباطل لم يُبن فيها الفعل للفاعل إلا عند موضعين اثنين في سورة الأعراف، هما قوله تعالى: ﴿ أَيُشۡرِكُونَ مَا لَا يَخۡلُقُ شَيۡـٔٗا وَهُمۡ يُخۡلَقُونَ ﴿١٩١﴾ وَلَا يَسۡتَطِيعُونَ لَهُمۡ نَصۡرٗا وَلَآ أَنفُسَهُمۡ يَنصُرُونَ ﴿١٩٢﴾﴾، وقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسۡتَطِيعُونَ نَصۡرَكُمۡ وَلَآ أَنفُسَهُمۡ يَنصُرُونَ ﴿١٩٧﴾﴾، كان فيهما نفيٌ لهذا الفعل عن باطلهم الذي يدعونه من دون الله _سبحانه_. وأما ما خلا ذلك فبُني هذا الفعل الْمنفيّ لِما لم يُسم فاعله دائمًا، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشۡتَرَوُاْ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا بِٱلۡأٓخِرَةِۖ فَلَا يُخَفَّفُ عَنۡهُمُ ٱلۡعَذَابُ وَلَا هُمۡ يُنصَرُونَ ﴾ (البقرة: ٨٦)، وقوله تعالى: ﴿لَن يَضُرُّوكُمۡ إِلَّآ أَذٗىۖ وَإِن يُقَٰتِلُوكُمۡ يُوَلُّوكُمُ ٱلۡأَدۡبَارَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ﴾ (آل عمران: ١١١). وفي بناء هذا الفعل الْمنفي لِما لم يُسم فاعله ما يكشف عن زيف هذا الباطل الذي يعتقدونه ويُصرون عليه؛ لأن أقل ما يرجو العبد من

معبوده أن يبذل له النّصرة الكاملة التي تعينه على تجاوز الْمصاعب والعقبات، أمّا أن ينعدم النصير الذائد حين تقتحم الأخطار، ويزولَ عنهم ما قد توهموه سندًا لهم وعونًا في هذه الحال التي تتزلزل من أهوالها الجبال، فخليق بما هذه حاله ألا يُلتفت إليه بعبادة أو ما هو أدنى ذلك.

ولهذا، فإن سياقي انتفاء النُّصرة في موضعي سورة الأعراف بُني فيهما الفعل للفاعل؛ لأن فاعل النُّصرة في هذين الموضعين يعود إلى الآلهة الباطلة، وقد أُسند فيهما الفعل للفاعل؛ لإظهار زيفها أمام متبوعيها، وفضح حقيقة أمرها لذويها، وكشف سبُلها الْملتوية التي لا تدفع عن نفسها أو أصحابها شيئًا؛ إرشادًا الخلقَ لِما عليهم أن يتّبعوا إذا شاءوا التماس سبيل النجاة من النار، أو استبانة منار الطريق والسّلامة في دار القرار.

_ومما بُني لِما لم يُسم فاعله _أيضًا_ في مقامات الترهيب الفعلُ: ﴿قِيلَ﴾، من قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا ٱدْخُلُوا۟ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ فَكُلُوا۟ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا۟ حِطَّةٌ نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطَٰيَٰكُمْ ۚ وَسَنَزِيدُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٨﴾ فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ قَوْلًا غَيْرَ ٱلَّذِى قِيلَ لَهُمْ فَأَنزَلْنَا عَلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ﴾ (البقرة: ٥٨، ٥٩).

أما موطن الشاهد فيما سبق فكان في بناء الفعل: ﴿قِيلَ﴾[1]، الوارد في قوله تعالى: ﴿فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ قَوْلًا غَيْرَ ٱلَّذِى قِيلَ لَهُمْ﴾ لِما لم يُسم

(١) لم تبحث التفاسير القرآنية الْمهتمة بإظهار الفوائد البلاغية للنظم القرآني البواعثَ السياقية التي مهّدت لبناء هذا الفعل لِما لم يُسم فاعله، كما لم تُبرز كذلك السر البلاغي الذي يقف خلف عدم ذِكر فاعلٍ لهذا الفعل في سياقه هذا _على حدّ اجتهادي.

ومن ذلك، يُنظر: تفسير الراغب الأصفهاني:١/٢٠٥. والكشاف عن حقائق غوامض التنزيل:١/١٤٣. والتفسير الكبير:٣/٥٢٥. ونظم الدرر في تناسب الآيات والسور:١/٣٩٩. والتحرير والتنوير:١/٥١٤.

فاعله، وبقليل من التأمل تدرك جليًّا الفاعل الحقيقي لهذا الفعل؛ إذ هو الجليل _سبحانه_، بدليل قوله تعالى في مستهل الآية التي تسبقها: ﴿وَإِذْ قُلْنَا ٱدْخُلُواْ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ﴾. ومعلوم أن فعل القول: ﴿قِيلَ﴾، الذي هو موطن الشاهد، قد ورد في سياق الحديث عن بني إسرائيل الذين نقضوا ميثاقه _سبحانه_ وحاربوا أولياءه.

ولعل السر الذي يحتجب خلف بناء هذا الفعل لِما لم يُسم فاعله: تنْزيهُ الحقّ _سبحانه وتعالى_ أن يُذكر في صحبة مَن نبذوا عهده، ولَم يُقبِلوا على منهجه، بل أعرضوا عنه، مع أنه _سبحانه وتعالى_ قد عظّم لهم هذا القول، وذلك عن طريق إيثار ضمير التعظيم: (نا)، العائد عليه _سبحانه_ مع فعل القول في الآية التي سبقتها: ﴿وَإِذْ قُلْنَا ٱدْخُلُواْ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ﴾؛ حضًّا لهم على الإذعان، وشقّ عصا العصيان، ولكنهم مع ذلك انجرفوا مع هواهم وحادوا عن الحق، فنبذوا دواعي الإيمان، وولّوا وجوههم شطر سُبل الزيغ والهوان؛ فأورقَ صنيعهم هذا خزيًا عليهم ووبالاً؛ لأنهم لَمّا استنكفوا عن أن يرفعوا أنفسهم إلى مراقي الحقّ ولم يُقيموا له وزنًا في حياتهم، أخزاهم العزيز _سبحانه_ بأن حطّ منْزلتهم، ووضع ذكرهم؛ فلم يرفع لهم رأسًا بذكر اسمه _سبحانه_ مع فعل القول في مقام ذكر قصتهم وشأنهم، وإنما وضعهم الْموضع الذي قنعوا به، قابعين في مراتع المهانة والازدراء الوخيمة، لا يرفعون رءوسهم إلا إلى البوار المحتوم الْمحيط بهم، ولا يتطلعون بأبصارهم إلا إلى الهلاك الهائل الجاثم على حياتهم.

ثم إن مَن يُنعم نظره فيما سبق الفعل: ﴿قِيلَ﴾ _موطن الشاهد_ يجد أنّ ما سِيق قبله من معانٍ عند قوله تعالى: ﴿فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ قَوْلًا غَيْرَ ٱلَّذِي قِيلَ لَهُمْ﴾، قد أعانت على الإتيان بهذا الفعل: ﴿قِيلَ﴾ مبنيًّا لِما لم يُسم فاعله؛ لأنّ مَن لا يتأتّى منه إلا عصيان الأوامر الإلهية، والنفور منها كل النفور، ليس أهلاً لأدنى تكريم، ولا جديرًا بالترقي في مراتب الفضل

العظيم؛ بأن يُوجّه إليه القولُ محوطًا بالعزة والمنعة، وكل معاني الجلال والجمال الناشئة عن إسناد هذا القول إلى الله _سبحانه_؛ وبهذا تدرك جليًّا أن النظم الكريم قد "خرج في غير تكلّف وكد وشدّة تفكر وتعمّل، فكان سلسًا سهلاً، وكان له ماءٌ ورواءٌ ورقراقٌ، وعليه فرند لا يكون على غيره مما عسر بروزه، واستكره خروجه"(١).

هذا، والْمُتتبِّع لفعل القول الصادر من الجليل _سبحانه وتعالى_ في القرآن الكريم كله إذا سيق في مقامٍ يتجلّى منه عدمُ الرضى عمّن يُساق إليهم القول في الدنيا يجد أنها كلها قد بُني فيها فعل القول لِما لم يُسم فاعله، وهذا نظمٌ مُطرد في الكتاب العزيز، ولم يتخلف عن ذلك موضعٌ من الْمواضع التي سيق فيها القول لهم في دار الدنيا؛ ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ قَالُوٓا۟ إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴾ (البقرة: ١١)، وقوله جلّ شأنه: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا۟ كَمَآ ءَامَنَ ٱلنَّاسُ قَالُوٓا۟ أَنُؤْمِنُ كَمَآ ءَامَنَ ٱلسُّفَهَآءُ ۗ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلسُّفَهَآءُ وَلَٰكِن لَّا يَعْلَمُونَ ﴾ (البقرة: ١٣) وقوله سبحانه: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا۟ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا۟ نُؤْمِنُ بِمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَآءَهُۥ وَهُوَ ٱلْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَهُمْ ۗ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنۢبِيَآءَ ٱللَّهِ مِن قَبْلُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ (البقرة: ٩١)، وقوله عزّ سلطانه: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا۟ بَلْ نَتَّبِعُ مَآ أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ۚ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴾ (البقرة: ١٧٠)، وقوله تعالى: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ رَأَيْتَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا ﴾ (النساء: ٦١)، وغير ذلك كثير.

(١) كتاب الصناعتين، أبو هلال الحسن بن عبد الله بن سهل بن سعيد بن يحيى بن مهران العسكري (ت: نحو ٣٩٥هـ): ١٧١_ تح: علي محمد البجاوي، ومحمد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العصرية، بيروت، ١٤١٩ هـ .

وتلك سنة من سننه _سبحانه_ الكونية، التي ارتضاها ألا تتبدل أو تتحول؛ بأن يرفعَ مَن ينصره من أوليائه وأحبَّائه في الدنيا ويوم تقوم الأشهاد، وأن يخزيَ كلّ مَن لا يرى لشرعه _سبحانه_ سلطانًا عليه وحاكمًا؛ عدلاً وقسطًا في الحياة ويوم التناد؛ لأنه رغب عما يعود عليه بأسمى معاني الإجلال والإكرام والإعظام؛ فكان حقيقًا به أن يذوقَ سُبُل الإرهاق والإذلال، ثم يكون مُنقلبه مرغمًا إلى الأصفاد والأغلال.

ولكن، إذا كان مُطردًا أن يُبنى فعل القول الصادر من الجليل _سبحانه وتعالى_ لِما لم يُسم فاعله في القرآن الكريم كله إذا سيق في مقامٍ يتجلّى منه عدمُ الرضى عمّن يُساق إليهم القول في الحياة الدنيا، فلِم بُني لما لم يُسم فاعله في مقام يشيع فيه ما يدلّ على الرضا التّام، وذلك عند قوله تعالى: ﴿ قِيلَ ٱدۡخُلِ ٱلۡجَنَّةَۖ قَالَ يَٰلَيۡتَ قَوۡمِي يَعۡلَمُونَ ﴾ (يس: ٢٦)؟

ولعل الحكمة في سَوْق فعل القول لِما لم يُسم فاعله في سياق إدخال الْجنة السالف: بيانُ كثرة القائلين لهم ذلك وتنوعهم وتباينهم؛ لذا كان الحذف في هذا السياق لإرادة العموم والشمول؛ فالقول في هذا السياق ليس مقصودًا به الجليل _سبحانه وتعالى_ وحده؛ لأنّ مِن الْملائكة _أيضًا_ مَن يستبشر بأهل الْجنة، فيشارك في هذا القول، ويشهد لذلك قوله تعالى _عن خزنة الجنة الذين يُسلّمون على أهلها قائلين لهم: ادخلوها خالدين_: ﴿ وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ رَبَّهُمۡ إِلَى ٱلۡجَنَّةِ زُمَرًاۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتۡ أَبۡوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمۡ خَزَنَتُهَا سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡ طِبۡتُمۡ فَٱدۡخُلُوهَا خَٰلِدِينَ ﴾ (الزمر: ٧٣). ومما يؤيد ذلك _أيضًا_: أن الآية التالية لشاهد سورة يس الْمذكور سلفًا حين ذُكر فيها المغفرة والإكرام صَاحبَهما ذِكرٌ للجليل _سبحانه_؛ لأنه لا يشاركه فيهما أحدٌ؛ حيث يقول تعالى على لسان العبد الصالح: ﴿ بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ ٱلۡمُكۡرَمِينَ ﴿٢٧﴾ ﴾.

_ومن الأفعال التي بُنيت لِما لم يُسم فاعلها _أيضًا_ في سياقات الترهيب الفعلُ: ﴿وَضُرِبَتْ﴾ من الآية الكريمة: ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَىٰ لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَاحِدٍ فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنبِتُ الْأَرْضُ مِن بَقْلِهَا وَقِثَّائِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا ۖ قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَىٰ بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ ۚ اهْبِطُوا مِصْرًا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ ۗ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَاءُو بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ ۗ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ۗ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا وَّكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾[1] (البقرة: ٦١).

وعند الرجوع بالفعل الوارد في قوله تعالى: ﴿وَضُرِبَتْ﴾ إلى فاعله الحقيقي تدرك جليًّا أنه هو الجليل _سبحانه_، الذي يُعزّ مَن يشاء ويذلّ مَن يشاء. ولعل السببَ في بناء هذا الفعل لِما لم يُسمّ فاعله في هذا السياق الإيماءُ إلى تعيّن الفاعل حقيقة، وهو الْملك _سبحانه_، مع عدم وجود مُقتضًى في هذا السياق يُسوّغ العدول عن ذلك. ومما يُقوّي هذا الْمعنى:

---

(١) قوله تعالى: ﴿وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ﴾. يقول العلامة الراغب _رحمه الله_: "فإن قيل: كيف يصحُّ ذلك مع أنه قد يُرى من أهل الكتاب من لا يكون في مذلة ولا فقر؟

قيل: المذلّة هي التي تلزمهم ليس يجب أن تُعتبر في الأشخاص، ولا في الأعراض الدنيوية من الجاه والمال، بل يجب أن يُعتبر ذلك بالأحوال الشرعية، والعز والذل الحقيقيين، اللذين يقتضيهما الدين، وإياه قصد بقوله: (وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لا يَعْلَمُونَ). وقد قيل: كل عز مصيره إلى ذل فهو ذل، وما يتصوره بعض الناس عزًّا من غرور الدنيا فهو المذلة عند التحقيق. وكذلك المسكنة ليست قلة المال، وإنما هي الحرص، وفقر النفس؛ ولهذا روي عن النبي _صلى الله عليه وسلم_ أنه قال:{الغنى غنى النفس}. وقيل لحكيم: هل لفلان غنى؟ فقال: أما الغنى فلا أدري، إلا أن له مالاً كثيرًا.

_ تفسير الراغب الأصفهاني (ت: ٥٠٢هـ): ٢/ ٨٠٠_ تح: د/ عادل بن علي الشِّدِي، دار الوطن، الرياض، بلد الحرمين الشريفين، ط١، ١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٣م.

انتفاءُ وجود أحدٍ قد ادّعى لنفسه أو لغيره مِلْك هذا الجزاء، بل إن أكابر المجرمين أنفسَهم مع زهوهم وكِبرهم كانوا يعلمون يقينًا أنهم ضعفاء عاجزون عن تحقيق ذلك، حتى إنْ أوهموا غيرهم بامتلاك زمام الدنيا وإحكام قيادها؛ ومصداق هذا قوله تعالى _عن سؤال مَن جحدوا ألوهيته_: ﴿قُلْ مَنۢ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٨﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ﴾ (المؤمنون: ٨٨، ٨٩)؛ ولذلك، فإن فاعل هذا الفعل: ﴿ضُرِبَتْ﴾ لم يرد _أيضًا_ في سياق ضرْب الذلة والْمسكنة الوارد في سورة آل عمران؛ إذ يقول تعالى: ﴿ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوٓاْ إِلَّا بِحَبْلٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَحَبْلٍ مِّنَ ٱلنَّاسِ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْمَسْكَنَةُ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُواْ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعْتَدُونَ ﴿١١٢﴾﴾.

ولك أن تتأمل مليًّا السياق الوارد قبل ذِكر الفعل في موطن الشاهد: ﴿وَضُرِبَتْ﴾ (البقرة:٦١)، لتقف على أمرٍ مهم غاية في الْجلال، هو أنّ ما سيق مِن معانٍ قُبيل هذا الشاهد قد مهّدت تمهيدًا فاعلاً، كان له الأثر العظيم في تَكَوُّنِ بناء هذا الفعل: ﴿وَضُرِبَتْ﴾[1] لِما لم يُسم فاعله؛ من حيث إنّ ما ذُكر قبلُ، في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَٰحِدٍ

(١) مَن يُطالع التفاسير القرآنية الْمعنية بإبراز النكات البلاغية للنظم القرآني يُدرك جليًّا أنها _على حدّ اجتهادي_ لم تُظهر البواعث التي هيّأت لبناء هذا الفعل لِما لم يُسم فاعله، كما لم تُبرز كذلك السر البلاغي الذي يقف خلف عدم ذِكر فاعلٍ لهذا الفعل في سياقه هذا.
ومن ذلك، يُنظر: تفسير الراغب الأصفهاني:١/ ٢١٢. والكشاف عن حقائق غوامض التنزيل:١/١٤٥. والتفسير الكبير:٣/٥٣٤. ونظم الدرر في تناسب الآيات والسور:١/٤١٧. والتحرير والتنوير:١/٥٢٦.

﴿فَٱدۡعُ لَنَا رَبَّكَ يُخۡرِجۡ لَنَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلۡأَرۡضُ مِنۢ بَقۡلِهَا وَقِثَّآئِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَاۖ قَالَ أَتَسۡتَبۡدِلُونَ ٱلَّذِي هُوَ أَدۡنَىٰ بِٱلَّذِي هُوَ خَيۡرٌۚ ٱهۡبِطُواْ مِصۡرٗا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلۡتُمۡ﴾، لَما بُيِّن فيه أنْ قد كان مَتعيَّنًا عند هؤلاء الْمتلقين أن مَن بيده الرزق هو الله _تعالى_ وحده، حتى أثبتوا ذلك من تلقاء أنفسهم له _سبحانه_ عند قوله تعالى: ﴿فَٱدۡعُ لَنَا رَبَّكَ يُخۡرِجۡ لَنَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلۡأَرۡضُ مِنۢ بَقۡلِهَا وَقِثَّآئِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا﴾؛ ومن الْمُسلَّمات الثابتة ثبوتًا يقينيًّا لا يكاد يُدفع: أنّ مَن مَلك شأن إنزال الرزق من السماء على الحال التي يريدها قادر وحده لا محالة على إعزاز مَن شاء أو إذلاله، ولا نزاع في ذلك عند جميع العقلاء؛ فهو شيءٌ بدهي، لا يفتقر إلى ذِكرِ فاعلٍ له حتى يقوى الإثبات ويترسخ البرهان!

ولعل مما يؤيد معنى تعيُّن الفاعل في سياق بناء الفعل لِما لم يُسم فاعله في موطن الشاهد: ﴿وَضُرِبَتۡ﴾ أنّ لفظ الجلالة قد ظهر في السياق نفسه مع الْمعنى الذي ليس مقصورًا عليه _سبحانه_ وهو الغضب؛ إذ يقول تعالى _عقيب موطن الشاهد هذا_: ﴿وَبَآءُو بِغَضَبٖ مِّنَ ٱللَّهِ﴾؛ إذ سِيق في آيتي (البقرة: ٦١)، و(آل عمران: ١١٢) السالفتين؛ وفي ظهور متعلق الغضب في هذين السياقين إشعارٌ بأن غضبه _سبحانه_ لا جرم مباينٌ في حقيقته وجوهره وثِقل وطأته لكل ما سواه من غضب الْمخلوقين.

ثم إنك إذا تدبرت السياق الوارد فيه فعل الضرب، الذي هو موطن شاهدِ سورة البقرة: ﴿وَضُرِبَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلذِّلَّةُ وَٱلۡمَسۡكَنَةُ﴾ علمتَ يقينًا أن هذا الجزاء قد نشأ _أيضًا_ كنتيجة حتمية لِما سيق قبله من معان؛ إذ يقول تعالى: ﴿وَإِذۡ قُلۡتُمۡ يَٰمُوسَىٰ لَن نَّصۡبِرَ عَلَىٰ طَعَامٖ وَٰحِدٖ فَٱدۡعُ لَنَا رَبَّكَ يُخۡرِجۡ لَنَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلۡأَرۡضُ مِنۢ بَقۡلِهَا وَقِثَّآئِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَاۖ قَالَ أَتَسۡتَبۡدِلُونَ ٱلَّذِي هُوَ أَدۡنَىٰ بِٱلَّذِي هُوَ خَيۡرٌۚ ٱهۡبِطُواْ مِصۡرٗا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلۡتُمۡ﴾؛ إذ لَمّا تمنَّعوا

عن قبول العطية الإلهية الجليلة، واختاروا لأنفسهم ما يضع منها، مما يتلاءم مع دونية الهوى، أعطاهم _سبحانه_ من جنس ما تهفو إليه أفئدتهم، وتعنو له أعناقهم، وتطمح إلى بلوغه رغائبهم؛ فالنفوس تطمح دومًا إلى ما يستقيم مع مشاربها، ويتناغم مع توجهاتها، وعلى ذلك فإنها لا تكاد تبرحه حتى إن كان في طياته المذلة والهوان، الذي يتعارض مع جوار ما ارتضاه الكريم الرحمن _سبحانه_، الذي يُشرّع ما يُزكّي النفوس ويطهرها، ويُعزها ويُرقّيها؛ ولذلك، كان حقيقًا أنْ يُذلّ مَن رضي إذلال نفسه لضلال شهواتها، وأن يعاقب بالدُّونية مَن قنع بها ولازمها، وأبى أن يحيد عنها أو ينثني عن طرائقها.

_ومما بُني لِما لم يُسم فاعله _أيضًا_ في مقامات الترهيب الفعلُ: ﴿يُرَدُّونَ﴾، الوارد في سياق الآية الكريمة: ﴿ثُمَّ أَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِّنكُم مِّن دِيَٰرِهِمْ تَظَٰهَرُونَ عَلَيْهِم بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَإِن يَأْتُوكُمْ أُسَٰرَىٰ تُفَٰدُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ ۚ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ ٱلْكِتَٰبِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ ۚ فَمَا جَزَآءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْىٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰٓ أَشَدِّ ٱلْعَذَابِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ (البقرة: ٨٥)[1].

(١) الضمير في: ﴿أَنتُمْ﴾، الذي في مُستهل الآية، راجع إلى ما تقدم، من قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَقُولُوا۟ لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنكُمْ وَأَنتُم مُّعْرِضُونَ ﴿٨٣﴾ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَآءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنفُسَكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ﴾ (البقرة: ٨٣، ٨٤).
﴿ثُمَّ أَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ﴾: يقتل بعضكم بعضًا، ﴿وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِّنكُم مِّن دِيَٰرِهِمْ تَظَٰهَرُونَ عَلَيْهِم﴾: تتعاونون على أهل ملَّتكم، ﴿بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ﴾: =

وعند العودة بهذا الفعل: ﴿يُرَدُّونَ﴾ إلى فاعله الحقيقي تعلم يقينًا أنْ لا فاعل له في هذا السياق ونظائره سوى الجليل _سبحانه_ الذي له الإرادة الْمطلقة، والْمشيئة النافذة في أمر الدنيا والآخرة.

وفي بناء هذا الفعل: ﴿يُرَدُّونَ﴾ لِما لم يُسم فاعله في هذا السياق إيْماء إلى أنّ هذا الْمرَدّ الْمذكور، وإنْ كان يستعظمه مَن لا يؤمن به _تعالى، ما هو إلا شيء هين ميسور، ليس بعزيزٍ في حقه _سبحانه؛ لدرجةٍ لا يعوزها ذِكرُ اسم من أسمائه _تعالى_ أو صفة من صفاته، تبرهن على إمكانية حدوث ذلك، وخاصة أنَّ ذلك الْمَرَدّ كان لِمن اقترفوا ما يوجب هوانهم على الله _تعالى؛ والآية من بدايتها إلى حين وصولها إلى هذا الفعل موطن الشاهد قد ساقت ما يُبرهن على انحرافهم عن الحق ويُؤكد على بُعدهم عن الصواب؛ إذ يقول تعالى: ﴿ثُمَّ أَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِّنكُم مِّن دِيَٰرِهِمْ تَظَٰهَرُونَ عَلَيْهِم بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَإِن يَأْتُوكُمْ أُسَٰرَىٰ تُفَٰدُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ ۚ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ ٱلْكِتَٰبِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ ۚ فَمَا جَزَآءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْىٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰٓ أَشَدِّ ٱلْعَذَابِ﴾؛ ولهذا، فإنهم لَمّا تعمدوا الحيدة عن

=

بالمعصية والظُّلم، ﴿وَإِن يَأْتُوكُمْ أُسَرَىٰ تُفَٰدُوهُمْ﴾: مأسورين يطلبون الفداء فديتموهم، ﴿وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ﴾، أي: وإخراجهم عن ديارهم محَّرمٌ عليكم، ﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ ٱلْكِتَٰبِ﴾، يعني: فداء الأسير، ﴿وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ﴾، يعني: القتل والإخراج والمظاهرة على وجه الإباحة؟

قال السُّدِّيُّ _رحمه الله_: أحذ الله _تعالى_ عليهم أربعة عهودٍ: تركَ القتل، وترك الإخراج، وترك المظاهرة، وفداء أُسرائهم؛ فأعرضوا عن كلٍّ ما أُمروا به إلاَّ الفداء، ﴿فَمَا جَزَآءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْىٌ﴾: فضيحةٌ وهوانٌ، ﴿فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾. الوجيز في تفسير الكتاب العزيز: ١١٦ .

شِرعته _سبحانه_ ومنهاجه، وكان ذلك شيئًا سهلاً ميسورًا عليهم ألجأهم في الآخرة إلى ما لا حيدة لهم عنه بأيّ حال كان، وهو كذلك سهلٌ وميسور عليه _سبحانه. كما أنهم لَمّا فارقوا صراطه الْمستقيم طواعية منهم واختيارًا، فما اتبعوا سبيله ولا سلكوا منهاجه، وكان ذلك هينًا عليهم _أيضًا_، ألجأهم _سبحانه_ إلى صنوفٍ من العقاب لا تُفارقهم، بل يُحملون إليها قسرًا، ويُستكرهون على ملازمة سبيلها استكراهًا، لن يجدوا في رحاب غير الله _تعالى_ إلى الخلاص من هذا كلِّه أيَّ سبيل، حتى إن استصحبوا معهم في سبيل تحقيق ذلك كل دليل، وإنما يُلجئون إلى ذلك إلجاءً، ويُدفعون إليه دفعًا لا مفر منه ولا نجاة، ويُساقون إليه سوقًا، لا حيلة لأحد في المحيد عنه، أو الهرب منه، وهذا كلُّه عليه هينٌ _سبحانه.

ومما هو بسبيل من هذا الْمعنى بناءُ الفعل: ﴿يُرَدُّونَ﴾، الوارد في قوله تعالى: ﴿وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ مُنَٰفِقُونَ ۖ وَمِنْ أَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ ۖ مَرَدُوا۟ عَلَى ٱلنِّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ ۖ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ ۚ سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ﴾ (التوبة: ١٠١)؛ حيث بُني الفعل نفسه: ﴿يُرَدُّونَ﴾ لِما لم يُسم فاعله _أيضًا_ لهذا الْمعنى الْمتقدم. وعلى هذا النحو من الصياغة سيق الفعل نفسه في قوله تعالى: ﴿قَالَ أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُۥ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِۦ فَيُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا نُّكْرًا﴾ (الكهف: ٨٧).

والْمتتبع لهذا الفعل: ﴿يُرَدُّونَ﴾ في القرآن المجيد يجد أنه بُني دائمًا لِما لم يُسم فاعله إذا سِيق مع أي معنًى ليس للمخلوق فيه اختيار أو تصرّف؛ لبيان أن ما يرد في تلك السياقات من أحوال أو أهوال أمرها هين على خالقها _سبحانه_ الكبير الْمتعال، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّىٰكُمْ ۚ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَىْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ﴾ (النحل: ٧٠)، وقوله جل سلطانه: ﴿إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ ۚ وَمَا تَخْرُجُ مِن

ثَمَرَٰتٍ مِّنْ أَكْمَامِهَا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِۦ ۚ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ أَيْنَ شُرَكَآءِى قَالُوٓا۟ ءَاذَنَّٰكَ مَا مِنَّا مِن شَهِيدٍ﴾ (فصلت: ٤٧)؛ فبالتأمل البصير تُدرك أن تلك الْمعاني هينة عليه _سبحانه_ مع أنها عظيمة الوطأة على الْمخلوقين، لدرجة أنْ لا قدرة لمخلوق على دفعها عن نفسه، أو اتقائها اتقاءً يطمئن معه أن يكون في مأمن منها، كالمعنى الْمذكور في آية سورة النحل الْمذكورة سلفًا، وهو قوله تعالى: ﴿وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَيْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْـًٔا﴾. وبعض تلك الْمعاني يعجز الأنام عن الوقوف على تفهّم أسرارها، ويقصر إدراكهم عن بلوغ أيٍّ مما استأثر الله _سبحانه_ بعلمه عنها، كالمعنى الوارد في آية سورة فصلت التي سيقت سلفًا، وهو قوله تعالى: ﴿إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ ۚ وَمَا تَخْرُجُ مِن ثَمَرَٰتٍ مِّنْ أَكْمَامِهَا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِۦ﴾.

وعند التأني الفاحص المستوعب للسياق محل الشاهد الْمذكور سلفًا ربما تقف على ملاحظة جديرة بكثير من التأمّل والنظر، هي: أن بناء الفعل: ﴿يُرَدُّونَ﴾[1] في هذا السياق لما لم يُسم فاعله إنما هيأ لحدوثه ومهّد لتكوُّنِه ما أُخبر به قبلُ عن هذا الْمَرَدّ من أنه واقعٌ يوم القيامة؛ إذ يقول تعالى: ﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰٓ أَشَدِّ ٱلْعَذَابِ﴾، ومعلوم أنّ كل حركة أو سكنة في هذا اليوم لا تستقيم على أي صورة لذويها إلا بالقدْر الذي يأذن

(١) المتتبع لهذا الفعل وسياقه في كتب التفاسير القرآنية الْمهتمة بإبراز الأسرار البلاغية للنظم القرآني يُدرك جليًّا أنها _على حدّ اجتهادي_ لم تذكر شيئًا عن البواعث التي مهّدت لبناء هذا الفعل لِما لم يُسم فاعله، كما لم تبحث كذلك عن السر البلاغي الذي يقف خلف عدم ذِكر فاعلٍ لهذا الفعل في سياقه هذا.
ومن ذلك، يُنظر: تفسير الراغب الأصفهاني: ١/ ٢٥٣. والكشاف عن حقائق غوامض التنزيل:١/ ١٦١. والتفسير الكبير:٣/ ٥٩٣. ونظم الدرر في تناسب الآيات والسور:٢/ ١٣. والتحرير والتنوير:١/ ٥٩٢.

بـه مالـك هـذا اليـوم، الـذي لا يرتـاب مرتـاب فـي أنـه هـو الله _تعـالى_؛ ومصداق ذلك ما يرد على ألسنة أهل النار أنفسِهم يوم القيامة؛ حيث يوقنون أن الأمر في هذا اليوم إليه _سبحانه_ وحده؛ ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ فِي ٱلنَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ٱدْعُواْ رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ ٱلْعَذَابِ﴾ (غـــافر: ٤٩)، وقوله تعالى: ﴿وَنَادَوْاْ يَٰمَٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُم مَّٰكِثُونَ﴾ (الزخرف: ٧٧). وبترديـد النظـر فيمـا ذُكـر قبـل محـل الشـاهد الْمـذكور سـلفًا: ﴿يُرَدُّونَ﴾ تجد أن تفريط الْمخاطبين الذي أبرزه قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِّنكُم مِّن دِيَٰرِهِمْ تَظَٰهَرُونَ عَلَيْهِم بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَإِن يَأْتُوكُمْ أُسَٰرَىٰ تُفَٰدُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ ٱلْكِتَٰبِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ﴾، لعلـه ممـا قـد يُـرجح الْمعنـى الذي فُهم من بناء هذا الفعل لما لم يُسم فاعله، وهو هوْن هذا الْمَردّ على الله _تعالى؛ من حيث إن بني إسرائيل لَمّا حملوا أنفسهم على سبيل مضلَّة، فهان عليهم أمر الحق لدرجةٍ جعلتهم يفرطون فيه، ولَم يقيموا له وزنًا، إذ قد أخذوا منه وتركوا كما اتفق لأهوائهم، وتَساير مع ما يعنّ لهم من مختلف آرائهم وأحوالهم _عُوقبوا بشيء يتلاءم تمام الْملاءمة مع قُبح ما اجترحوه، بحيث يتفق مع طباعهم، ويوائم مألوف عاداتهم، وينتظم مع ما انحرف من أذواقهم وأفهامهم؛ ومن ذلك أن السياق حين عرض لشيءٍ من عذابهم الدنيوي ذكر شيئًا من جنس الهوان الحقيقِ بهم، وهو الخزي الوارد قبلُ عند قولـه تعـالى: ﴿فَمَا جَزَآءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾، وهو ما يبرهن على هوانهم على الله _تعالى_. وكذلك حين ذُكر عذابهم الأخروي لم يُذكر معه الفاعل _سبحانه_ الذي يردهم إلى أشد العذاب، الْمعدِّ لِمَن هان عليه ما شرّعه وأوجبه؛ فهو عذابٌ مع شدته الْمتمكنة من جوهره وحقيقته لا يحتاج إلجاؤهم إليه ذِكرَ أيٍّ اسم من أسمائه الحسنى،

أو صفة من صفاته العلا حتى يزداد المعنى ثباتًا في الأذهان أو رسوخًا في الألباب؛ لأنه شيءٌ هينٌ على مَن خلقه _سبحانه. والله أعلم.

_ومما بُني لما لم يُسم فاعله في مقامات الترهيب _أيضًا_ الفعلُ الْمنفي في قوله تعالى: ﴿فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ﴾، من الآية الكريمة: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ (البقرة: ٨٦)[1].

وعند الرجوع بهذا الفعل: ﴿يُخَفَّفُ﴾ إلى فاعله، يظهر لك جليًّا أنه عامٌّ، ليس قاصرًا على أحدٍ بعَيْنه فحسْب، بل يتعدّى ذلك ليعمّ جميع الأنام، ومَن قد يرى في نفسه أنه مفزع الملهوفين وملاذ اللائذين.

وفي بناء هذا الفعل: ﴿يُخَفَّفُ﴾ لِما لم يُسم فاعله في هذا السياق إيماءٌ إلى انعدام مَن يكشف عمن وصفهم الذّكر الحكيم ما هُم فيه من صنوف العذاب، أو يرفع عنهم وطأة ما ينتظرهم من ألوان الإرهاق والعقاب، أو يدفع ما يحلّ بهم من سوء الْمصير وشقاء الضرر الْمبين.

ولأجل هذا الْمعنى، لم يأت فاعلٌ لهذا الفعل في جميع سياقات العذاب التي أخبر الله _سبحانه_ عنها في القرآن الكريم، ما خلا شاهدًا وحيدًا. فمما لَم يُذكر معه الفاعل قوله تعالى: ﴿خَالِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ﴾ (البقرة: ١٦٢)، و(آل عمران: ٨٨)، وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا رَءَا الَّذِينَ ظَلَمُوا الْعَذَابَ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ﴾ (النحل: ٨٥)،

---

(١) الإشارة في: ﴿أُولَٰئِكَ﴾ ناظرة إلى ما تقدّمها في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنفُسَكُم مِّن دِيَارِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ ﴿٨٤﴾ ثُمَّ أَنتُمْ هَٰؤُلَاءِ تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِّنكُم مِّن دِيَارِهِمْ تَظَاهَرُونَ عَلَيْهِم بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَإِن يَأْتُوكُمْ أُسَارَىٰ تُفَادُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ ۚ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ ۚ فَمَا جَزَاءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۖ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰ أَشَدِّ الْعَذَابِ ۗ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ (البقرة: ٨٤، ٨٥).

وقولـه تعـالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَهُمۡ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقۡضَىٰ عَلَيۡهِمۡ فَيَمُوتُواْ وَلَا يُخَفَّفُ عَنۡهُم مِّنۡ عَذَابِهَاۚ كَذَٰلِكَ نَجۡزِي كُلَّ كَفُورٖ ﴾ (فاطر: ٣٦).

وإنما سيق هذا الفاعل في موضع وحيد في القرآن الكريم كله، هو سياق الإخبار عما يقوله الذين في النار لخزنة جهنم حين يقاسون ويلاتها، ويُغمسون في لهيبها؛ حيث يقول تعالى: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ فِي ٱلنَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ٱدۡعُواْ رَبَّكُمۡ يُخَفِّفۡ عَنَّا يَوۡمٗا مِّنَ ٱلۡعَذَابِ ﴾ (غـافر: ٤٩)؛ وفـي بنـائهم الفعـل لفاعلـه الحقيقـي القـادر علـى مـا يـأملون اعترافٌ منهم بقيوميتـه _تعـالى_، وهيمنته، وقدرته على إجلاء ما حلّ بهم في هذا اليوم الْمهيب، لا سيما حين يعـاينون صـنوف العـذاب بأنفسـهم، ويقاسـون شـدائده بحواسـهم، ويعايشـون أهواله بعقولهم وأفئدتهم، ولكنهم يتذكرون ذلك في حال لا يُجدي فيه التذكُّر.

ثم إنّ مَن ينعم نظره وفِكره في موطن الشاهد الْمذكور سلفًا: ﴿فَلَا يُخَفَّفُ عَنۡهُمُ﴾ يتنبّه إلى أن بناء الفعل: ﴿يُخَفَّفُ﴾ في هذا السياق إنّما كان مُنبثقًا عن الْمعاني الواردة قُبيله في قوله تعالى: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشۡتَرَوُاْ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا بِٱلۡأٓخِرَةِ﴾؛ لأن ذِكر الآخرة قبلُ قد ملأ القلوب هيبة ووجلاً، تُدرك معه النفوس كيف ينعدم اللطف في هذا اليوم إلا عن واهبه _سبحانه، وكيف يزول الرّفق عن كلّ شفيع إلا أن يشاء الله _تعالى_ ويرضى!. وبدهي أن مَن اكتفي بما ينال من الدنيا وزخرفها واستبدله بالجزاء الأخروي هان عليه أمر تلك الحياة الآخرة، وحقر في نظره متاعها وملذاتها، وتنازل عن كل مُشتهًى ومُبتغًى فيها، وكان هذا كلُّه كأنه ميثاقٌ قد قطعه على نفسه، مستغنيًا بما في يده عما في يد الله _سبحانه؛ ولهذا، كان خليقًا ألا يجد نصيرًا يُخَفِّف عنه ما يتلظّى فيه من عذاب الدار الآخرة؛ لأنه انصرف عنها، وأهمل السعي إليها، وعزَف عن العملَ لها عن عمدٍ وقصدٍ، إهمالاً تناسى معه أنها لا محالة آتية لا ريب فيها.

_ومما بُني لما لم يُسم فاعله _أيضًا_ في مقامات الترهيب الفعل: ﴿وَأُشْرِبُواْ﴾، الوارد في الآية الكريمة: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ خُذُواْ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱسْمَعُواْۖ قَالُواْ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأُشْرِبُواْ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْۚ قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُم بِهِۦٓ إِيمَٰنُكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾[1] (البقرة: ٩٣).

وإنما بُني الفعل: ﴿وَأُشْرِبُواْ﴾ في هذا السياق لِما لم يُسم فاعله؛ لإفادة العموم والشمول؛ إذ الأسباب التي مهدّت السبيل الْموصل إلى تحبيبهم في هذا العِجل كانت متعددة ومتباينة، من حيث طرائق عصيانهم التي كان يجب عليهم تلافيها ليَسلموا من بوائقها، وكذا مروقهم من ربقة العبودية بسبب ما اجترحوه من سوء الفعال التي تجلب صنوف الوبال على ذويها؛ ولهذا، جُعل الكُفرُ في هذا السياق: ﴿بِكُفْرِهِمْ﴾ سببًا لِما

(١) ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ﴾ بالطَّاعة لله _تعالى_ والإيمان بمحمَّدٍ _عليه الصلاة والسَّلام_ في حال رفع الطُّور فوقكم، يعني: الجبل؛ وذلك لأنَّهم أبوا قبول شريعة التَّوراة فأمر الله _سبحانه_ جبلاً فانقلع من أصله حتى قام على رءوسهم؛ فقبلوا خوفًا من أن يُرضخوا على رءوسهم بالجبل. وقلنا لكم: ﴿خُذُواْ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم﴾: اعملوا بما أُمرتم به، ﴿بِقُوَّةٍ﴾: بجدٍّ ومواظبةٍ على طاعة الله _عز وجل_. ﴿وَٱسْمَعُواْ﴾، أي: اقبلوا ما فيه من حلاله وحرامه وأطيعوا، ﴿قَالُواْ سَمِعْنَا﴾ ما فيه، ﴿وَعَصَيْنَا﴾ ما أُمرنا به، ﴿وَأُشْرِبُواْ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلْعِجْلَ﴾: وسُقوا حبَّ العجل، وخُلطوا بحبِّ العجل حتى اختلط بهم، والمعنى: حُبِّب إليهم العجل. ﴿قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُم بِهِۦٓ إِيمَٰنُكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾: هذا تكذيبٌ لهم في قولهم: نؤمن بما أنزل علينا؛ وذلك أن آباءهم ادَّعوا الإيمان ثمَّ عبدوا العجل؛ فقيل لهم: بئس الإيمان إيمانٌ يأمركم بالكفر. والمعنى: لو كنتم مؤمنين ما عبدتم العجل، يعني: آباءهم. كذلك أنتم لو كنتم مؤمنين بما أُنزل عليكم ما كذَّبتم محمَّدًا _صلى الله عليه وسلم_. الوجيز في تفسير الكتاب العزيز: ١١٠، ١١٨.

اكتسبوه من رانٍ غشّى قلوبهم، وصدفَهم عما يستنقذهم من أدران الباطل البئيس، الذي أعمى بصائرهم وقادهم طائعين مختارين إلى ما ينزع عنهم إنسانيتهم، ويفصمهم عن تكريم الله _تعالى_ الذي لا يُفارق عباده الْمؤمنين.

وأمّا عن كيفية تكوُّنِ صياغة الفعل في قوله تعالى: ﴿وَأُشْرِبُواْ﴾[1] لِما لم يُسم فاعله فبالتأمل في سياق الآية ينجلي للبصير أنّ السياق الوارد قبل هذا الفعل قد مهّدَ لتلك الصياغة، ودفَعَ الْمعنى إليها دفعًا يتلاءم مع الْمعنى الذي قصدت إليه الآية؛ فقوله تعالى: ﴿قَالُواْ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا﴾ يُبْرز تبجحهم في رفضهم الْموعظة، وتصلبهم في العناد، وإصرارهم على ما هم مُقيمون عليه من الضلال، لا يتزحزحون عنه ولا يتحولون دونه، ومثل هؤلاء بالضرورة قد دفعهم إلى هذا التبجح وذاك الإصرار كثرةُ اقتحامهم أبواب المعاصي ومقارفة أسباب الفسوق، وأخْذِهم من مشاربها بالنصيب الأوفى، وإيغالهم في ارتكابها بكل القُوَى، ويُبِين عن هذا الْمعنى ما سِيق قُبيل هذه الآية من آيات تكشف عن بعض عتوهم وزيغهم؛ إذ يقول تعالى: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُواْ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُواْ نُؤْمِنُ بِمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَآءَهُۥ وَهُوَ ٱلْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَهُمْ ۗ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنۢبِيَآءَ ٱللَّهِ مِن قَبْلُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٩١﴾ ۞ وَلَقَدْ جَآءَكُم مُّوسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ ثُمَّ ٱتَّخَذْتُمُ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَنتُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿٩٢﴾ ﴾، ونظرًا لهذا التنوع وذاك التعدد في سبل الْمعصية

(١) الذي يراجع التفاسير القرآنية التي كانت تُعنى بإبراز النكات البلاغية للنظم القرآني يُدرك أنها _على حدّ اجتهادي_ لم تذكر شيئًا عن العوامل التي هيّأت وكانت بدورها مُوطئة لبناء هذا الفعل لِما لم يُسم فاعله، كما لم تبحث كذلك عن السر البلاغي الذي يقف خلف عدم ذِكر فاعلٍ لهذا الفعل في سياقه هذا.
ومن ذلك، يُنظر: تفسير الراغب الأصفهاني: ١/ ٢٦٢. والكشاف عن حقائق غوامض التنزيل: ١/ ١٦٦. والتفسير الكبير:٣/ ٦٠٤. ونظم الدرر في تناسب الآيات والسور:٢/ ٥٤. والتحرير والتنوير:١/ ٦١٣.

وبواعثها التي كان سببًا في صرفهم عن محبة الله _تعالى_ إلى محبة مَا سواه أوثر بناء الفعل في قوله تعالى: ﴿وَأُشْرِبُواْ﴾ لِما لم يُسم فاعله. والله أعلم.

وحين تَعرضُ قولَه تعالى: ﴿وَأُشْرِبُواْ﴾ على فكرك، وتورده على طبعك، ينجلي لك أن معنى هذا الفعل نفسِه إنّما هيّأ لوروده الْمعاني الواردة قبله، عند قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ خُذُواْ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱسْمَعُواْۖ قَالُواْ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا﴾؛ إذ مُتأصِّل في نفوس الأسوياء أنّ مَن ينقضون ما قد أبرموه، مع ما فيه من سلامتهم ونجاتهم في جميع الأحوال، لا جرم مُقادون بسلطان الهوى الْمتجذر في قلوبهم، المخالط لحنايا عقولهم، ومن ثَمّ يدفعهم ذلك في هذا السياق القرآني دفعًا لا هوادة فيه إلى التنكّر لِما قد عظّمه الجليل _سبحانه_ بنفسه، مما سيق في هذه الآية من معان ثلاثةٍ خالطها التعظيم الْمُفاد من الضمير: (نا) العائد عليه _سبحانه_، إذ يقول تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ﴾، ﴿وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ﴾، ﴿خُذُواْ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱسْمَعُواْ﴾. ولغَلَبة الهوى عليهم كان منهم الإعراض عن تلك المعاني العظيمة كلها؛ إذ: ﴿قَالُواْ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا﴾، وتم لهم ذلك بسبب الانسياق مع ما فيه فساد الطباع والقِيم، الذي يسَّره عليهم تشبُّعهم بأسباب الانحراف والفوضى. ولا يصل الإنسان إلى تلك الْمرتبة من الانقياد الْمُضلِّل إلا إذا كان مركوزًا في جبلته حبَّ ما ينأى عن الرضى به أولو الفِطر القويمة والمذاهب السّديدة، التي مكّنهم من الوصول إليها مختارين مُقادين في لين وطواعية الإشرابُ الْمذموم الْمُعبَّر عنه بالمعنى الوارد في قوله تعالى: ﴿وَأُشْرِبُواْ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ﴾.

ومَن يُنعم نظره في السياقات القرآنية التي ذكرت تمكن الحب من الأفئدة يقف على أن تلك السياقات جميعها لم يرد في أيِّها ذِكرٌ لفعل

الإشراب هذا، وخاصة في الْمقامات التي أُوردت محبة الله _تعالى_، ومحبة رسوله _صلى الله عليه وسلّم_، مع ما يدل عليه هذا الفعل من دلالة جليّة على هذا الْمعنى من أخصر الطرق وأوفاها، بيْد أنّ اجتلاب هذا الفعل في سياق ذِكر العجل كان من فرائد التعبيرات القرآنية؛ حيث لم يُؤت به في غير هذا الْمقام؛ لإظهار أنّ ما عُبر به عن هذا الزّيف والبهتان، وهو: حب العجل، أولى ألا يُعبَّر به عن إظهار الحب الحقيقي الْمتجذر في قلوب أهل الإيمان لبارئهم وخالقهم _سبحانه_، ورسولهم ومحبوبهم _صلى الله عليه وسلم_.

وكان في هذا التركيب، وهو قوله تعالى: ﴿وَأُشْرِبُواْ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلْعِجْلَ﴾، حذفُ مضافٍ _أيضًا_، قد قُدّر بـ(حُبّ)، أو نحوه، أي: (حُبّ العجل)؛ ليُشار بذلك إلى معنى جليلٍ، هو غياب الْمحبة الصادقة للعجل عن قلوبهم، وخلوّها كذلك من الحب الذي من شأنه أن يصرفهم عن عبادة الإله الحق _سبحانه_، بل إن هذا قد يُشعر أنهم ما اتخذوه حين اتخذوه إلا عنادًا ومكابرة، ولأجل هذا طُوي ذِكر الْمضاف؛ إرشادًا إلى أنّ ذلك الاتخاذ لم يكن لشيء استهواهم في العجل وجذبهم نحوه، فاستجاش فيهم هذا الشعور، وإنّما غرّهم منه بريقه الذهبي الذي يخطف الأبصار، وبهرهم لألاءه الذي يخلب الألباب ويأسر الجنان، ولكنَّ العِجلَ عِجل مهما كان أو تكَوّن، وفي هذا زيادة للتنفير من حالهم، ودعوة إلى الاشمئزاز من معبودهم الذي ارتضوه، ومذهبهم الذي اعتنقوه. كما أن في حذف الْمضاف الواقع قبل: ﴿ٱلْعِجْلَ﴾ "تنبيهًا أنْ لفرط شغفهم به ثبتت صورة العجل في قلوبهم راسخة، وإنْ زالت ذاته الجسميّة"[1]. وتلك نتيجة حتمية لِمَن يصر على

(١) تفسير الراغب الأصفهاني، أبو القاسم الحسين بن محمد، المعروف بالراغب الأصفهانى (ت: ٥٠٢هـ): ١/ ٢٦٣_ تح: د/ محمد عبد العزيز بسيوني، كلية الآداب، جامعة طنطا، ط١، ١٤٢٠هـ / ١٩٩٩م

إخضاع نفسه وإذلالها لدوافع الأهواء، إصرارًا يحدوها إلى أن تستبد بها، وتملك عليها أقطار حياتها؛ ولهذا، جاء في الحديث المروي عن سيدنا أبي هريرة _رضي الله عنه_، أنّ رسول اللَّه _صلَّى اللَّه عليه وسلّم_ قال: {إنّ العبد إذا أخطأ خطِيئَةً نُكتت في قَلْبه نُكْتَةٌ سَوْدَاءُ، فَإِذَا هو نَزَعَ واستغفر وتاب سُقِلَ قَلْبُه، وإنْ عَادَ زِيدَ فيها حتى تَعْلُوَ قلبَه، وهو الرّان الذي ذَكَرَ اللَّهُ}: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ (المطففين: ١٤)[1].

ثم تجدك أمام معنى جليلٍ يتكشف لك من ذِكر الْمتعلق: ﴿بِكُفْرِهِمْ﴾ في هذا السياق؛ إذ يُبِين هذا الْمتعلق أنّ أمر العجل وانغماسهم في حبه لم يكن صارفًا لهؤلاء الْمخاطبين بتلك الآية _موطن الشاهد_ عن الإيمان بالله _تعالى_، وإنّما كان كفرهم بالله _سبحانه_ السببَ في عبادتهم العجل، فليس العجل الْمحركَ لهم، والباعث على كفرهم بالله _تعالى_، واتخاذِ معبودٍ سواه، وإنما كان الكفر هو قائدهم إلى تحكيم سلطان الهوى، ونبذ سبيل الحق والرشاد؛ فكأنهم لَمّا لَم يكن لهم هَمّ في الارتقاء بأنفسهم، والتسامي بأرواحهم إلى أعلى عليين أخزاهم الله _تعالى_ بأن نكّسها في أوضار الخزي التي تهوي بهم إلى أسفل سافلين؛ إذ الكفر يجعل ذويه هائمين على وجوههم في أدوية الجهالة وضروبها، معزولين عن كل ما يحجزهم عن غياهب الأباطيل، ويعصمهم من مذاهب الأضاليل؛ إذ يقول _تعالى_ عن هؤلاء وأمثالهم: ﴿فَنَذَرُ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ (يونس: ١١). وكأن تلك الحيرة الْمفرطة تدفعهم إلى الانصياع لأي تيار جارف والانسياق معه، من دون رويّة أو نظرٍ في

(١) سنن الترمذي، محمد بن عيسى بن سَوْرة بن موسى بن الضحاك، الترمذي، أبو عيسى، (ت: ٢٧٩هـ)، ٤٤_ أبواب تفسير القرآن عن رسول الله _صلى الله عليه وسلم_، باب: ومن سورة ويل للمطففين: ٥/ ٤٣٤، حديث رقم: (٣٣٣٤)، وقال العلامة الترمذي: «هذا حديث حسن صحيح».

العواقب التي يُخلفها عليهم؛ رازحين تحت أثقاله سراعًا، غير آبهين بما قد ينالهم من شر جسيم يتهددهم، وبلاء صارخ لا يكاد يضل طريقه عنهم، أو يبرح خُطاهم.

وهذا يُظهر سببية الكفر في تعمية البصائر، وإفساد النفوس، ومسخ الطّباع، وإفساد العقول؛ فما من شك أن العقل القويم لا يهدي ذويه إلى عبادة العجل وحبّه إلا إذا فسدت طبيعة هذا العقل، واختلت مقاييسه التي يُميز بها بين الحق والزيف، والهدى والضلال.

_ومن الأفعال التي بُنيت لِما لم يُسم فاعلها _أيضًا_ في مقامات الترهيب الفعلُ: ﴿أُنزِلَ﴾، من الآية الكريمة: ﴿وَٱتَّبَعُواْ مَا تَتْلُواْ ٱلشَّيَٰطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَٰنَ ۖ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَٰنُ وَلَٰكِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ كَفَرُواْ يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحْرَ وَمَآ أُنزِلَ عَلَى ٱلْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَٰرُوتَ وَمَٰرُوتَ ۚ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَآ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ ۖ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِۦ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَزَوْجِهِۦ ۚ وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ ۚ وَلَقَدْ عَلِمُواْ لَمَنِ ٱشْتَرَىٰهُ مَا لَهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنْ خَلَٰقٍ ۚ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْاْ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ ۚ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ﴾ (البقرة: ١٠٢).

وفي قوله تعالى: ﴿وَمَآ أُنزِلَ عَلَى ٱلْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَٰرُوتَ وَمَٰرُوتَ﴾[1] حذفٌ لفاعل الفعل: ﴿أُنزِلَ﴾، وبناؤه لِما لَم يُسم فاعله. وما من شكٍّ أن

(١) قد يُقال: كيف يَسُوغ للملائكة أن تُفقِّه بعض الأنام طرائق السِّحرَ؟ وكيف يُباح أن يُنسَب إلى الله _جلّ شأنه_ إنزالُ ذلك على الْملَكَين؟

وقد أجاب شيخ المفسرين **ابن جرير الطبري** _رحمه الله_ على هذا بكلام يتواءم مع الْمُعتقَد السديد؛ حيث يقول: "فالسحر مما قد نَهى _سبحانه وتعالى_ عباده من بني آدم عنه، فغيرُ منكَر أن يكون _جل ثناؤه_ علَّمه الْمَلَكين اللذَين سماهما في تنْزيله، وجعلهما فتنة لعباده من بني آدم _كما أخبر عنهما أنهما يقولان لمن يتعلم ذلك =

الْمُنْزِل ذلك على الْملكين هو الله _سبحانه_.. وفي العدول إلى الإتيان بهذا الفعل على هذا النحو من البناء لِما لم يُسم فاعله _والله أعلم_ تنْزيهٌ للجليل _سبحانه وتعالى_ أن يُذكر في مَقام يُضلَّل فيه الناس. كما أن في عدم التصريح بذكر لفظ الجلالة إنكارًا لجريرة السِّحر الْمُهلِكة، ومَقتًا لأربابه وأنصاره.

وأكبر ظني أنّ ما ورد من معنًى قبل هذا الفعل: ﴿أُنزِلَ﴾ عند قوله تعالى: ﴿وَٱتَّبَعُواْ مَا تَتْلُواْ ٱلشَّيَٰطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَٰنَ ۖ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَٰنُ وَلَٰكِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ كَفَرُواْ يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحْرَ﴾ خيرُ ما قد مهّد لبناء الفعل: ﴿أُنزِلَ﴾ في هذا السياق لما لم يُسم فاعله؛ من حيث إنّ قوله تعالى: ﴿وَمَآ أُنزِلَ عَلَى ٱلْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَٰرُوتَ وَمَٰرُوتَ﴾ إذا كان معطوفًا على: ﴿ٱلسِّحْرَ﴾ الوارد قبلُ عند قوله تعالى: ﴿وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَٰنُ وَلَٰكِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ كَفَرُواْ يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحْرَ﴾، ويكون تأويله: يُعلمون الناس السحر ويعلمونهم كذلك ما أنزل على الملكين؛ فيكون هذا قد مهّد لبناء الفعل: ﴿أُنزِلَ﴾ لما لم يُسم فاعله؛ لأن إسنادَ تعليمِ شيءٍ أنزله الله _تعالى_ إلى الشياطين يكسبهم من الشرف الجزيل الذي ليسوا أهلاً له، كما أنه كذلك بمنأى تمامًا عنهم، ومِن ثَمّ بُني الفعل: ﴿أُنزِلَ﴾ في هذا الْمقام لِما لم يُسم فاعله.

=

منهما: ﴿إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ﴾_؛ ليختبر بهما عباده الذين نهاهم عن التفريق بين المرء وزوجه، وعن السحر؛ فيمحص المؤمن بتركه التعلم منهما، ويخزي الكافر بتعلمه السحر والكفر منهما. ويكون الملكان في تَعْلِيمِهِمَا مَنْ عَلّمَا ذلك لله _سبحانه_ مطيعين، إذْ كانا _عن إذن الله لهما بتعليم ذلك من علماء_ يعلمان".

جامع البيان عن تأويل آي القرآن، محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الآملي، أبو جعفر الطبري (ت: ٣١٠هـ): ٢/ ٤٢٦، ٤٢٧ _تح: أحمد محمد شاكر، مؤسسة الرسالة، ط١، ١٤٢٠هـ/ ٢٠٠٠م.

أمـا إذا كـان قولـه تعـالى: ﴿وَمَآ أُنزِلَ عَلَى ٱلْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَـٰرُوتَ وَمَـٰرُوتَ﴾ معطوفًا على قوله تعالى: ﴿مَا تَتْلُواْ﴾، على معنى: واتبعوا ما تتلو الشياطين، وكذا ما أُنزل على الْملكين؛ فيكون الذي مهّد لبناء الفعل: ﴿أُنزِلَ﴾ لما لم يُسم فاعله اتباعَهم أباطيل الشياطين وأضاليلهم التي تجرّهم إلى أخطر الويلات، وتقودهم إلى عظائم الشرور والنّكبات، التي تعدل بذويها عن المنهج القويم، والصّراط المستقيم؛ ومن ثَمّ، فبدهي ألا يُسند الإنزال إليه _تعالى_ في هذا السياق؛ لأنه _سبحانه_ حقيق ألا يُذكر إلا في الْمقامات التي فيها حضّ لذويها على سلوك سبيل الهدى والرشاد، ولزوم منهاج الحقّ والسّداد.

ومما سبق يتبيّن جليًّا وجه التناسب بين تلك الْمعاني الواردة قُبيل الشاهد، عند قوله تعالى: ﴿وَٱتَّبَعُواْ مَا تَتْلُواْ ٱلشَّيَـٰطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَـٰنَ ۖ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَـٰنُ وَلَـٰكِنَّ ٱلشَّيَـٰطِينَ كَفَرُواْ يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحْرَ﴾، وبين ما فُهم من بناء الفعل: ﴿أُنزِلَ﴾ لِما لم يُسم فاعله، حيث: تنْزيه الجليل _سبحانه وتعالى_ أن يُذكر في مَقام يُضلَّل فيه الناس، وكذا إنكار جريرة السِّحر الْمُهلِكة، ومَقت أربابه وأنصاره؛ إذ إنّ هذا الْمقام يبدو منه ما يوجب مقته _سبحانه_ وغضبه الذي لا ينقطع على مَن ينتصرون لسُبل الغواية وأحلافها، ويبالغون في إيثارها واتّباعها؛ فطبعي أن يُنَزَّه _سبحانه_ عن أن يُذكر في مقام لا يتورع ذووه عن اتباع أعدى أعدائهم، وهو الشيطان، ويتركون السبيل الْموصلة إلى كل رضوان ينتظرهم من خالقهم _سبحانه وتعالى_ الكريم الرحمن.

_ومما بُني لما لم يسم فاعله _أيضًا_ في مقامات الترهيب الفعلُ: ﴿كُتِبَ﴾، الوارد في الآية الكريمة: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِصَاصُ فِى ٱلْقَتْلَى ۖ ٱلْحُرُّ بِٱلْحُرِّ وَٱلْعَبْدُ بِٱلْعَبْدِ وَٱلْأُنثَىٰ بِٱلْأُنثَىٰ ۚ فَمَنْ عُفِىَ لَهُۥ مِنْ أَخِيهِ شَىْءٌ فَٱتِّبَاعٌۢ

بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَأَدَآءٌ إِلَيۡهِ بِإِحۡسَٰنٖۗ ذَٰلِكَ تَخۡفِيفٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَرَحۡمَةٞۗ فَمَنِ ٱعۡتَدَىٰ بَعۡدَ ذَٰلِكَ فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴾ (البقرة: ١٧٨).

والمتأمل في موطن الشاهد: ﴿كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡقِصَاصُ ﴾ يدرك جليًّا أن الفاعل الحقيقي فيه هو رب العزة _سبحانه، الذي بيده الإيجاب والتكليف.

أما عن بناء الفعل: ﴿كُتِبَ﴾، الوارد في قوله تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡقِصَاصُ ﴾ لِما لَم يُسم فاعله فكان لتعيُّنه حقيقة ووضعًا؛ إذ هو الجليل _سبحانه وتعالى_ الذي له حق التشريع أصلاً ومرجعًا؛ لأنه يتعذر على أيٍّ من الخلائق في الأحوال جميعها سلوك هذه السبيل، بل يمتنع عليهم إدراك كُنهها، وتحصيل بواعثها، أو بلوغ غايتها إلا بوحي منه _سبحانه وتعالى_، لدرجة أنه لم يرد أن إنسانًا قد نظر إلى نفسه نظرة إكبار قطّ مدّعيًا لنفسه _ولو كذبًا_ أنه هو الذي شرّع تلك التشريعات، أو أوجب هذه الواجبات.

وهذ السبب مُتوافقٌ مع كثير من آيات النظم الكريم في سورة البقرة وفي غيرها من السّور القرآنية مما بُني فيها هذا الفعل: ﴿كُتِبَ﴾ لِما لم يُسم فاعله، بيد أنّ الْمقام إذا اقتضى ذِكرَ معنًى له علاقةٌ وثيقةُ الصلة بأيٍّ من أسماء الله _تعالى_ الحسنى أو صفاته العلى؛ فحينئذٍ يُذكر الْمسند إليه مُشيرًا إلى هذا الْمعنى، وآخذًا الأنظار نحوه. فمِما ورد فيه هذا الفعل مبنيًّا لِما لم يُسم فاعله قوله تعالى: ﴿ كُتِبَ عَلَيۡكُمۡ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلۡمَوۡتُ إِن تَرَكَ خَيۡرًا ٱلۡوَصِيَّةُ لِلۡوَٰلِدَيۡنِ وَٱلۡأَقۡرَبِينَ بِٱلۡمَعۡرُوفِۖ حَقًّا عَلَى ٱلۡمُتَّقِينَ ﴾ (البقرة: ١٨٠)، ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ﴾ (البقرة:١٨٣)، ﴿كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡقِتَالُ وَهُوَ كُرۡهٞ لَّكُمۡ ﴾ (البقرة: ٢١٦)، إلى غير ذلك من آياتٍ بُني فيها فعل الكتابة _بمعنى: القضاء والإيجاب_ لِما لم يُسم فاعله.

وحين تتدبر موطن الشاهد: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِصَاصُ﴾ وما ورد قبله، وهو النداء الذي في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ تدرك جليًّا أن هذا النداء قد ساعد على بناء الفعل: ﴿كُتِبَ﴾ في سياقه هذا لِما لم يُسم فاعله؛ إذ إن مَن نودي عليهم بوصف الإيمان: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ موقنون يقينًا جازمًا لا يتزعزع، أنّ من آمنوا به _سبحانه_ وأسلموا له نفوسهم، وانقادوا له في جميع حياتهم هو الذي أوجب عليهم ذلك وفرضه وشرعه؛ ولهذا، بُني الفعل: ﴿كُتِبَ﴾ لِما لم يُسم فاعله في سياقه هذا، إذ ورد في أعقاب نداءٍ عليٍّ على أهل الإيمان الجديرين بهذا الوصف، الْمدركين يقينًا أنّ زواله عنهم بجميع آثاره مرتَهن بإنكارهم ما هو حق أصيل له _سبحانه_ من حيث التشريع والتكليف والإيجاب.

ومع تعيُّن الفاعل في مثل تلك الْمعاني الواردة، بيْد أنّ هناك سياقاتٍ من النظم الكريم كان الفاعل فيها مُتعيَّنًا _أيضًا_ ومع ذلك أُوثر ذكره، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ ٱلصِّيَامِ ٱلرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَآئِكُمْ ۚ هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ ۗ عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَخْتَانُونَ أَنفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنكُمْ ۖ فَٱلْـَٰٔنَ بَٰشِرُوهُنَّ وَٱبْتَغُواْ مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾ (البقرة: ١٨٧)، وقوله جلّ شأنه: ﴿وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَآ أَنَّ ٱلنَّفْسَ بِٱلنَّفْسِ وَٱلْعَيْنَ بِٱلْعَيْنِ وَٱلْأَنفَ بِٱلْأَنفِ وَٱلْأُذُنَ بِٱلْأُذُنِ وَٱلسِّنَّ بِٱلسِّنِّ وَٱلْجُرُوحَ قِصَاصٌ﴾ (المائدة: ٤٥).

وفي ذِكر لفظ الجلالة في قوله تعالى: ﴿وَٱبْتَغُواْ مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾ من آية سورة (البقرة: ١٨٧) الْمذكورة سلفًا، إشارةٌ إلى جانب من جوانب الألوهية في هذا السياق، وهو عدم رضاه _سبحانه وتعالى_ إلا بما فيه صونٌ لعباده عما قد ينْزلقون فيه من وابل المثالب الجارفة والنقائص الراجفة؛ حيث يقول تعالى: ﴿عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَخْتَانُونَ أَنفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنكُمْ﴾؛ إذ الامتثال لِما فرضه _سبحانه_ وأوجبه فيه ارتقاء

بالنفس نحو سبيل الكمال الصاعد، وتكريْمٌ لها عن أوحال الأدران وثقل الضلالات والْمفاسد.

ولعل في ذِكر الفاعل ومجيئه بنون التعظيم في قوله تعالى: ﴿وَكَتَبْنَا﴾ من آية سورة (المائدة: ٤٥) المذكورة سلفًا، التي تتحدث عن حرمة النَّفس: حضًّا للعباد على تعظيم شأن هذا القصاص الذي فرضه عليهم الجليل _سبحانه وتعالى_ أتَمّ تعظيم، وإجلاله وتوقيره أوفر توقير، وبيان أنّ هذا الإيجاب والإلزام مِمّا ينبغي أن تُملأ بعظمته الأفئدة؛ فلا يعوق ذلك تقلبات الأحوال ولا نزعات الأهواء؛ لأن هذا السياق قد حوى حقًّا أصيلاً من حقوق بني الإنسان كافة، وهو القصاص؛ فمن تجاوزه، وانتهك حرمته، وابتعد عن الإذعان له، وتحللت أواصره من حياته فما قدَر الله _سبحانه_ حقّ قدره، وما عظّمه حق التعظيم.

_ومما بُني لما لم يُسم فاعله _أيضًا_ في مقامات الترهيب الفعلُ: ﴿زُيِّنَ﴾، من الآية الكريمة: ﴿زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَيَسْخَرُونَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ اتَّقَوْا فَوْقَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ (البقرة: ٢١٢).

وعند ردّ هذا الفعل: ﴿زُيِّنَ﴾ إلى فاعله الحقيقي تعلم يقينًا أنه هو الخلاّق _سبحانه_، الذي بيده مقاليد الأمور والأحكام. ولعل في بناء الفعل لِما لم يُسم فاعله في هذه الآية ما يومئ إلى تعيُّن فاعله حقيقةً ووضعًا على الوجه الذي يليق به _سبحانه_؛ لانعدام مَن يسوغ له فعل ذلك قائمًا بنفسه، متجرّدًا عن إرادته _سبحانه_ وقدرته، التي تُرى مظاهرها وتُدرَك دلائل عظمتها في كل ما في الكون والحياة. ولذلك تجد هذا التزيين قد سيق في القرآن الْمجيد مبنيًّا لما لم يُسم فاعله في مواطن كثيرة منه.

ثم إن التدبر في السياقات التي ذُكر فيها فعل التزيين يوقفك على لطيفة جليلة النفع، هي: أنه إذا كان السياق يتحدث عن أعمالٍ قد بيّنها الله _سبحانه_ وأسندها إلى نفسه، ثم كان ما يُظهر نكول الْمتلقين عن تلك

التكاليف، و إيثارهم سبُل الغي والعصيان، تجد السياق يؤثر بناء فعل التزيين _الذي فاعله الحقيقي هو الله تعالى_ لِما لَم يُسم فاعله؛ تنْزيهًا له _سبحانه_ عن أن يُذكر مع مَن ردّوا كلامه، وحادوا عن سبيله، وتنكبوا صراطه المستقيم، ونبذوا الحق الْمبين ورءاهم ظهريًّا؛ ومن ذلك ورودُ هذا الفعل لما لم يُسم فاعله في سياق قوله تعالى: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا ۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكَٰفِرِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ (الأنعام: ١١٩)، وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلنَّسِىٓـُٔ زِيَادَةٌ فِى ٱلْكُفْرِ ۖ يُضَلُّ بِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُحِلُّونَهُۥ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُۥ عَامًا لِّيُوَاطِـُٔوا۟ عِدَّةَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ فَيُحِلُّوا۟ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ ۚ زُيِّنَ لَهُمْ سُوٓءُ أَعْمَٰلِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ (التوبة: ٣٦)، وقوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَصُدَّ عَنِ ٱلسَّبِيلِ ۚ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِى تَبَابٍ﴾ (غافر: ٣٧). وفي ورود فعل التزيين مبنيًّا لِما لم يُسم فاعله في تلك السياقات وما سِيق على منوالها إشارةٌ إلى أن هؤلاء العصاة لَمّا لَم يُعظموه _تعالى_ بأن تركوا منهاجه، ونبذوا أوامره، وساروا إليه _سبحانه_ من سبُل غير السبيل التي أقامها وارتضاها، عظّم _سبحانه_ نفسه ونزهها عن أن يُذكر في صحبتهم؛ لأنهم رفعوا أنفسهم عن أن يخضعوا لجلاله، وأجمعوا أمرهم على عدم الإقرار بشِرعته وأن يذلوا لسلطانه.

وكذلك تجد _أيضًا_ أنه إذا لم يأت في سياقات التزيين ذِكرٌ لأعمال الخلائق بل اقتُصر فيها على ذِكر زينة الحياة الدنيا ونعيمها، وبيان أُنس أهلها بها، فإن فاعل التزيين _أيضًا_ في هذه الحال يصبح مُتعيَّنًا؛ إذ هو الله _تعالى_ الذي أرشد عباده إلى هذا الْمعنى وبيّنه جليًّا في كتابه العزيز؛ حيث قال تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ (الكهف: ٧)؛ ولهذا سِيق فعل التزيين لِما لم يُسم فاعله في الْمواضع التي ضمّت بيانًا لبهجة الدنيا وجمالها الْمجرد من الأهواء والآثام، ومن ذلك

الآية محل الشاهد، وهي قوله تعالى: ﴿ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَيَسْخَرُونَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ فَوْقَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ وَٱللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ (البقرة: ٢١٢)، وقوله تعالى: ﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِ ﴾ (آل عمران: ١٤). ولعلك تلحظ أن التزيين في هاتين الآيتين كان للكافرين كما كان لغيرهم من الناس كذلك، وفي هذا ما يُشير إلى هوان تلك الأشياء الْمُزَيّنة على خالقها _سبحانه_؛ لأنها لو لم تكون كذلك ما أعطاها لمن يجحد وجوده _سبحانه_، وفي هذا حضٌّ على عدم التشبث بها، أو الإخلاد إلى نعيمها، والانغماس في شهواتها ونزواتها؛ حتى لا يُفضي هذا الانحطاط والانغماس بذويه إلى أن يذوقوا مثيله في الآخرة؛ لأنهم ما اعتادوا إلا هذا، وما ارتضوا لأنفسهم سبيلاً إلا ذاك، فأسلمهم الهوى إلى الهوان؛ كما قال المعصوم _صلى الله عليه وسلم_: {حفت النار بالشهوات}[1]. ومعلوم بدهيًّا أنّ مَن اعتاد الهوان أنف العز والكرامة، ومن اعتاد الدنو والسفول أنف مراقي الارتقاء والسموّ. وكذلك، فمن اعتاد التسامي على الدنايا أحلّه الله _سبحانه_ مقامًا ليس فيه دنو أو خزايا، بل رِفعةٌ إلى أعلى عليين؛ لأنه قد تعالي بنفسه عن سفاهات العقول، وضلالات النفوس، وصدف عن كل سبيل يهوي به في مهاوي الخذلان والخسران مرضاةً لربه _سبحانه_.

(١) جزء من حديث: {حُفت الجنةُ بِالْمَكَارِهِ، وَحُفَّتِ النارُ بِالشهَوَات}. صحيح مسلم= المسند الصحيح المختصر بنقل العدل عن العدل إلى رسول الله _صلى الله عليه وسلم_، مسلم بن الحجاج أبو الحسن القشيري النيسابوري (ت:٢٦١هـ)، ٥١_كتاب الجنة وَصِفَةِ نَعِيمِهَا وأهلِها، كتاب صِفَةِ القيامة والجنة والنار، حديث رقم: ١/ (٢٨٢٢). ٤/ ٢١٧٤_ تح: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، د.ت.

كما يتبيّن للبصير _أيضًا_ أن السياقات حين تعرض لكشف أسباب الغي والإضلال والبُعد عن منهج الله _تعالى_، وبيان العوارض التي تقف حجر عثرة في سبيل كل مخلص يُبلّغ أمانة ربه _سبحانه_، فإن فعل التزيين في تلك الحال يُسند إلى الشيطان اللعين؛ لكونه سببًا في كل ما يئول بذويه إلى سوء الْمنقلَب، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿فَلَوْلَآ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُواْ وَلَٰكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ (الأنعام: ٤٣)، وقوله تعالى: ﴿تَٱللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ ٱلْيَوْمَ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (النحل: ٦٣)، وقوله تعالى: ﴿وَعَادًا وَثَمُودَاْ وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَٰكِنِهِمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَكَانُواْ مُسْتَبْصِرِينَ﴾ (العنكبوت: ٣٨)، وباقي المواضع في الكتاب العزيز تسير على هذا النحو من الصياغة؛ لتشير إلى اللأي المحتوم، والبوار الْمحقق لكل سعيٍ يُلتمس فيه النجاة في حمى الشيطان اللعين وسُبله.

وبترديد النظر في آية سورة البقرة محل الشاهد، وهي قوله تعالى: ﴿زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَيَسْخَرُونَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ فَوْقَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ وَٱللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٢١٢﴾﴾، ومراعاة عدم حصر فهمها في إطار فكري بعيدٍ عن الآية التي سلفتها، وهي قوله تعالى: ﴿سَلْ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ كَمْ ءَاتَيْنَٰهُم مِّنْ ءَايَةٍۭ بَيِّنَةٍ ۗ وَمَن يُبَدِّلْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٢١١﴾﴾ يتبين جليًّا أنَّ معنى تعيُّن الفاعل الْمنبثق عن بناء فعل التزيين في قوله تعالى: ﴿زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا﴾ لِما لم يُسم فاعله إنّما كان ناشئًا عما سلفه من معانٍ مذكورة في الآية التي تقدمت هذه الآية، وهي قوله تعالى: ﴿سَلْ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ كَمْ ءَاتَيْنَٰهُم مِّنْ ءَايَةٍۭ بَيِّنَةٍ ۗ وَمَن يُبَدِّلْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٢١١﴾﴾؛ من حيث إن الْمعاني الْمتظاهرة في هذه الآية أبرزت أن مُولي النِّعم ومؤتيها على وجه الحقيقة هو الله _سبحانه_، ومَن علِم هذا

تمام العلم، وتيقنه حقّ التيقن، بأنْ أعمل فِكره _ولو يسيرًا_ في النصوص التي بين يديه، فليس بحاجة إلى إعادة ذِكرٍ لفاعل التزيين؛ لعدم وجود داعٍ آخر يُسوّغ معاودته، لأنه قد صار متعيَّنًا ومقطوعًا بصحته عند أولي الألباب.

ثم إن هذا التزيين كان من الله _تعالى_ على وجه الحقيقة بأنْ "خلق الأشياء الْحَسَنَة والمناظر المعجبة، فَنظر الْخلق إليها بأكثَرَ من قدرها، فأعْجبهُم ذلك"(١)؛ فمنهم من لم يكن ذلك عائقًا بينه وبين الغرض الأساس الذي خُلقت له تلك الْمباهج والمحاسن، وهي كونها مُعينةً للمكلفين على متابعة السير في طريق العبودية لله _تعالى_ على الوجه الأمثل، الذي يُساعد على اجتياز ما قد يتخلل هذه السبيل من عقباتٍ كأداء، تتمثل في الْمفاتن والْمحرمات التي تشغلهم، حتى تكاد تطيح بذويها، وتنأى بهم عن مواصلة سعيهم الْمطلوب الذي يُدلف إلى الغاية الْمحمودة.

ومنهم مَن أقبل على تلك الأشياء الْمبهجة يريد إصلاح دنياه بفساد أُخراه؛ متناسيًا أن يتخذها عونًا له تُبلّغه رضوان الله _سبحانه_، مقبلاً عليها بكل ما في وسعه وجهده، جاعلاً نفسه وقفًا على مواطن وجودها، يتلمس أسبابها، ويتعرّض لها، ويميل إليها بكل وجهٍ، ويسعى إليها في كل سبيل، بحيث جعلها غرضًا يُزهِّده في كل ما عداها؛ فلا يحرص على شيء أكثر من حرصه على استبقائها ومد أسبابها، بقدر ما يدخل في وسعه، مما يمكنه أن يختار ما يرغب، ويلتهم ما يهوى. ولعل هذا هو السبب الذي لأجله نُسب فعل التزيين إلى الشيطان اللعين في موضعين من الكتاب الْمجيد،

(١) هذا الترجيح في فاعل التزيين هو الذي عليه أكثر أهل العلم. ينظر: تفسير القرآن، أبو المظفر، منصور بن محمد بن عبد الجبار بن أحمد المروزى السمعاني، التميمي، الحنفي، ثم الشافعي (ت: ٤٨٩هـ): ١/ ٢١٢_ تح: ياسر بن إبراهيم وغنيم بن عباس بن غنيم، دار الوطن، الرياض، بلد الحرمين الشريفين، ط١، ١٤١٨هـ/ ١٩٩٧م.

فيهما الهلاك الْبَيِّن لِمَن يُسْلم نفسه إلى نزغاته؛ إذ يقول تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلَٰدِهِمْ شُرَكَآؤُهُمْ لِيُرْدُوهُمْ وَلِيَلْبِسُواْ عَلَيْهِمْ دِينَهُمْۖ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا فَعَلُوهُۖ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ﴾ (الأنعام: ١٣٧)، وقوله تعالى: ﴿وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ ٱلْيَوْمَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَّكُمْۖ فَلَمَّا تَرَٰٓءَتِ ٱلْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّنكُمْ إِنِّيٓ أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَۚ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ (الأنفال: ٤٨)؛ وفي إسناد فعل التزيين إلى الشيطان صراحة في هذين الموضعين السالفين تحذيرٌ من سُبُله وغواياته، وتجليةٌ لأمره وطرائقه التي تُعدُّ سببًا في تعمية بصائر مُتبعيه؛ وآية ذلك أنك تجد بناء فعل التزيين للفاعل وهو الشيطان اللعين في آية: ﴿وَكَذَٰلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلَٰدِهِمْ﴾ (الأنعام: ١٣٧) منبثق عن الآصرة القوية التي تجمع بين هذه الآية وما ورد قبلها من معانٍ تتحدث عما ينْزغه الشيطان في نفوس حزبه وأوليائه؛ إذ يقول تعالى: ﴿وَجَعَلُواْ لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ ٱلْحَرْثِ وَٱلْأَنْعَٰمِ نَصِيبًا فَقَالُواْ هَٰذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَٰذَا لِشُرَكَآئِنَاۖ فَمَا كَانَ لِشُرَكَآئِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى ٱللَّهِۖ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَىٰ شُرَكَآئِهِمْۗ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿١٣٦﴾﴾؛ لذا كان حريًّا أن يُسند التزيين في آية: (الأنعام: ١٣٧) إلى هذا اللعين؛ ليُحذر من موالاته، وينهى عن اتباعه، ويُبين بجلاء تامّ مبلغ عداوته للإنسان.

كما تُدرك _أيضًا_ أن آية: ﴿وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ﴾ (الأنفال: ٤٨) كان إسناد فعل التزيين إلى الشيطان اللعين فيها ناظرًا _أيضًا_ إلى الصلة المعنوية التي تجمع هذه الآية بما سلفها، وهو قوله تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ خَرَجُواْ مِن دِيَٰرِهِم بَطَرًا وَرِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَيَصُدُّونَ

عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا يَعۡمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿٤٧﴾﴾؛ من حيث إن الذي نُهي عنه في هذه الآية من التشبُّه بِمَن خرجوا من ديارهم بطرًا ورئاء الناس، ويصدّون عن سبيل الله _تعالى_ إنّما كان من عمل الشيطان في نفوسهم، وأثرًا من آثار مكره وغيّه الذي ينفثه في عقولهم؛ لذا كان خليقًا أن يُسند إليه التزيين في هذا السياق؛ تقويمًا للأذهان والبصائر؛ حتى يأخذ الْمُكلَّفون حِذرهم من عدوهم العنيد وخصمهم اللدود، الذي يتربص بهم دون ملل أو أدنى سآمة من الإغواء والْمطاردة.

ثم إنَّك تلحظ حين تتأمل السياقات القرآنية لفعل التزيين الوارد في الْمقامات التي أبرزت أحوال العصاة والمخالفين لأحكام الدين أنّ غضب الله _تعالى_ إذا اشتد في حال من تلك الأحوال التي سيق فيها فعل التزيين، مرادًا به تزيين سبُلِ الفتنة، تجد أن الفاعل الحقيقي يظهر مُعظّمًا بضمير التعظيم العائد على الجليل _سبحانه_، وإنما كان ذلك في موضعين وحيدين، هما: قوله تعالى: ﴿وَلَا تَسُبُّواْ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَسُبُّواْ ٱللَّهَ عَدۡوَۢا بِغَيۡرِ عِلۡمٖۗ كَذَٰلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمۡ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِم مَّرۡجِعُهُمۡ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ (الأنعام: ١٠٨)، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمۡ أَعۡمَٰلَهُمۡ فَهُمۡ يَعۡمَهُونَ﴾ (النمل: ٤)؛ لخطورة ما فعل ذووهما واقترفوه في جنب الله _تعالى_؛ ففي أحد هذين الْموضعين سببٌ للجليل _سبحانه_، وفي الآخَر: بيانٌ لحال مَن خلت حياته من الإيمان بلقاء الله _تعالى_ في الدار الآخرة. وفي بناء الفعل للفاعل في هذين الْموضعين بيانٌ لعلمه _سبحانه_ بفساد أحوالهم، وخبث طويتهم، وأنه إنما جازاهم بهذا التزيين الْمهلك على أعمالهم الْمريرة التي أوردتهم الْمهالك، وكانت سببًا في ذلك الْمصير الْمحتوم.

كما يُفهم _أيضًا_ من بناء الفعل للفاعل في هذين السياقين معنى جليلٌ حريٌّ أن يُتنبه له، هو: بيان أن هؤلاء الذين انسلخوا من الدين مهما

اقترفوا من خزايا أو اجترحوا من سيئات خاضعون لسلطانه _سبحانه_، خانعون لإرادته ومشيئته في ملكه وخلقه؛ حتى لا يداخلهم الغرور فيحسبوا أنهم باجتراحهم تلك الدنايا إنما فرّوا من قبضة الله _سبحانه_؛ فاقترفوا تلك الخزايا بمقدرتهم عليها، وأنّ ذلك إنما كان بمنجاة عنه _سبحانه_؛ فكان في بناء الفعل للفاعل إفحامٌ لهم، وإظهارُ جانبٍ من جوانب عظمته في بسط سلطانه _تعالى_ على جميع خلقه راضين أو مرغمين. ومما هو شاهد على ذلك ومصداقٌ له قولُه تعالى: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُ﴾ (فاطر: ٨).

ويرى العلامة ابن عاشور _رحمه الله_ أن حذف فاعل التزيين من الآية محل الشاهد: ﴿ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا وَيَسۡخَرُونَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ (البقرة: ٢١٢)، كان لكثرة دواعيه ودوافعه؛ حيث إن "الْمُزَيّن لهم أمور كثيرة، منها: خلق بعض الأشياء حسنة بديعة كمحاسن الذوات والمناظر.

ومنها: إلقاء حسن بعض الأشياء في نفوسهم وهي غير حسنة، كقتل النفس.

ومنها: إعراضهم عمن يدعوهم إلى الإقبال على الأمور النافعة؛ حتى انحصرت هِممهم في التوغل من المحاسن الظاهرة التي تحتها العار لو كان باديًا.

ومنها: ارتياضهم على الانكباب على اللذات دون الفكر في المصالح، إلى غير ذلك من أمور يصلح كل منها أن يعد فاعلاً للتزيين حقيقةً أو عرفًا؛ فلأجل ذلك طُوي ذكر هذا الفاعل تجنبًا للإطالة"[1]. وما ذكره العلامة ابن عاشور _رحمه الله_ من صورٍ ليست فاعلة للتزيين _كما ترى_ ولا كانت سببًا فيه، كما يتجلّى من تلك الصور التي ذكرها جميعًا، بل

(١) التحرير والتنوير: ٢/ ٢٩٤.

هي من جملة زينة الحياة، التي تفتقد إلى قادر يجعلها متعة تلوح للناظرين؛ لأنها في ذاتها قاصرة عن أداء ذلك. والله أعلم.

_ومما بُني لما لَم يُسم فاعله _أيضًا_ في مقامات الترهيب الفعلُ المنفي: ﴿لَا تُكَلَّفُ﴾، من الآية الكريمة: ﴿وَٱلْوَٰلِدَٰتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ ۖ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ ٱلرَّضَاعَةَ ۚ وَعَلَى ٱلْمَوْلُودِ لَهُۥ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ۚ لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا ۚ لَا تُضَآرَّ وَٰلِدَةٌۢ بِوَلَدِهَا وَلَا مَوْلُودٌ لَّهُۥ بِوَلَدِهِۦ ۚ وَعَلَى ٱلْوَارِثِ مِثْلُ ذَٰلِكَ ۗ فَإِنْ أَرَادَا فِصَالًا عَن تَرَاضٍ مِّنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا ۗ وَإِنْ أَرَدتُّمْ أَن تَسْتَرْضِعُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُمْ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِذَا سَلَّمْتُم مَّآ ءَاتَيْتُم بِٱلْمَعْرُوفِ ۗ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ (البقرة: ٢٣٣)[1].

وبالتأمل في موطن الشاهد: ﴿لَا تُكَلَّفُ﴾ تعلم علمَ يقين أنَّ الفاعل الذي لَم يُسم في هذا السياق عامٌّ، يدخل في طياته كل من تدلّى إلى الزوجين بسبب أو آصرة قُربى، أو كان مُنصَّبًا للفصل بين هذين

(١)﴿وَٱلْوَٰلِدَٰتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ﴾: لفظه لفظ الخبر ومعناه الأمر، وهو أمرُ استحبابٍ لا أمر إيجابٍ. يريد: إنهنَّ أحقُّ بالإرضاع من غيرهنَّ إذا أردن ذلك. ﴿حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ﴾: تامين، وهذا تحديدٌ لقطع التَّنازع بين الزَّوجين إذا اشتجرا في مدَّة الرَّضاع. يدلُّ على هذا قوله: ﴿لِمَنْ أَرَادَ﴾، أي: هذا التقرير والبيان، ﴿لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ ٱلرَّضَاعَةَ﴾ . ﴿وَعَلَى ٱلْمَوْلُودِ لَهُۥ﴾، أي: الأب، ﴿رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ﴾: رزق الوالدات ولباسهنَّ. قال المفسرون: وعلى الزَّوج رزقُ المرأةِ المُطلَّقة وكسوتُها إذا أرضعت الولد، ﴿بِٱلْمَعْرُوفِ﴾: بما يعرفون أنَّه عدلٌ على قدر الإمكان، وهو معنى قوله: ﴿لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا﴾: لا تلزم نفسٌ إلاَّ ما يسعها، ﴿لَا تُضَآرَّ وَٰلِدَةٌۢ بِوَلَدِهَا﴾: لا ينْزع الولد منها إلى غيرها بعد أن رضيت بإرضاعه، وألِفَها الصَّبيُّ. ولا تُلقيه هي إلى أبيه بعدما عرفها تُضَارُّه بذلك، وهو قوله: ﴿وَلَا مَوْلُودٌ لَّهُۥ بِوَلَدِهِۦ﴾.
الوجيز في تفسير الكتاب العزيز: ١٧٢.

الْمتنازعَين؛ إذ "قيل: هذا التكليف فيه مدخل للحكام ولغيرهم؛ فجُعل لفظه منهما في موضع"(١).

ثم إن الرجوع إلى السياق الوارد فيه هذا الفعل الْمنفي: ﴿لَا تُكَلَّفُ﴾ يكشف لك مدى التناحر والعراك والتنازع الدائم الذي يتخلل تلك العلاقات الأسرية إنْ غاب عنها التراحم ونُزع منها التوادّ؛ ومن ثَمّ كان التوجيه الرشيد الوارد في قوله تعالى: ﴿لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا﴾؛ ليكون بناء الفعل الْمنفي: ﴿لَا تُكَلَّفُ﴾ لِما لم يُسم فاعله في هذا السياق فيه إيحاء بضرورة انعدام أيِّ أثر من شأنه أنْ يُثقل على أحد الطرفين أو كليهما بكل وسيلة مستطاعة؛ حتى لا تنوء كواهلهم بحمل تلك الأعباء، فيتولد صراع الضغائن، وتثار الفِتن، التي تقود المجتمعات بسهولة ويسر إلى الهاوية.

وبالتأمل، تدرك أنّ ورود الفعل الْمنفيّ: ﴿لَا تُكَلَّفُ﴾(٢) مبنيًّا لِما لم يُسم فاعله قد مَهّد له القيد: ﴿بِالْمَعْرُوفِ﴾، الذي قُيِّد به الْمعنى الوارد قُبيله، في قوله تعالى: ﴿وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾، تمهيدًا كافيًا؛ إذ مَن التزم الْمعروف في معاملته الناسَ فلن يُثقِل عليهم بِما قد يُجهدهم جهدًا غير محتمل، ينِدّ عن طَوقهم، ويستفرغ قواهم؛ فإذا روعي الْمعروف في الْمعاملات ربما يتلاشى على مرّ الأيام ما من شأنه يكون فيه تكليف للناس بما لا طاقة لهم به، وينقرض ذِكره، ويفنى رمزه.

---

(١) تفسير الراغب الأصفهاني: ١/ ٤٨٢.

(٢) لم تذكر كتب التفسير القرآني _على حد اجتهادي_ شيئًا عن أثر السياق على تكوُّن بناء هذا الفعل لِما لم يُسم فاعله في سياقه هذا.

ومن ذلك، ينظر: تفسير الراغب الأصفهاني:١/ ٤٨٢. والكشاف عن حقائق غوامض التنزيل:١/٢٧٩. والتفسير الكبير:٦/٤٦١. ونظم الدرر في تناسب الآيات والسور:٣/٣٣٣. والتحرير والتنوير:٢/٤٣٢.

والْملاحظ أن هذا الفعل الْمنفي: ﴿لَا تُكَلَّفُ﴾ قد ورد مبنيًّا كذلك في سياق مغاير في القرآن الكريم لِما لَم يُسم فاعله، وذلك عند قوله تعالى: ﴿فَقَٰتِلۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۚ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفۡسَكَۚ وَحَرِّضِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۖ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَكُفَّ بَأۡسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۚ وَٱللَّهُ أَشَدُّ بَأۡسٗا وَأَشَدُّ تَنكِيلٗا﴾ (النساء: ٨٤)[1].

وعند الوقوف مع هذا الفعل الْمنفي: ﴿لَا تُكَلَّفُ﴾، ورَدِّه إلى فاعله الْمعلوم، تدرك جليًّا تعيُّن الفاعل في هذا السياق؛ إذ هو الجليل _سبحانه_، الذي بيده مقاليد كل شيء؛ فلَمّا كان الخطاب مُوجّهًا منه _سبحانه_ إلى خليله محمد _صلى الله عليه وسلم_ لا جرم بُني الفعل معه لِما لَم يُسم فاعله؛ لعلمه _صلى الله عليه وسلم_ علمًا يقينيًّا لا يخالجه أدنى ريبة أنّ الذي كلفه بذلك هو الله _سبحانه_.

ولعل ما تقدم من سياقٍ قُبيل هذا الفعل الْمنفي: ﴿لَا تُكَلَّفُ﴾ (النساء: ٨٤) من معنًى قد مَهّد لبنائه لِما لَم يُسم فاعله؛ إذ يقول تعالى: ﴿فَقَٰتِلۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾؛ ومن الْمعلوم أن الذي أمره _صلى الله عليه وسلم_ وكلّفه بهذا القتال في سبيله _سبحانه_ هو الذي دفع عنه إصْر مَن تخاذَل عن ذلك القتال ونكص عن الْمشاركة فيه، كما وضع عنه _أيضًا_ الْمؤاخذة على ما اجترح غيره من تمنُّعٍ أو رجوع؛ ولهذا، فإن فاعل هذا الفعل الْمنفي: ﴿لَا

(١) قوله تعالى: ﴿فَقَٰتِلۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفۡسَكَ﴾، أي: إلاَّ فعلَ نفسك، على معنى: أنَّه لا ضرر عليك في فعل غيرك؛ فلا تهتمَّ بتخلُّف مَنْ يتخلَّف عن الجهاد، ﴿وَحَرِّضِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾: حُضَّهم على القتال، ﴿عَسَى ٱللَّهُ﴾: واجبٌ من الله _تعالى_، ﴿أَن يَكُفَّ﴾: يصرف ويمنع، ﴿بَأۡسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾: شدَّتهم وشوكتهم، ﴿وَٱللَّهُ أَشَدُّ بَأۡسٗا﴾: عذابًا، ﴿وَأَشَدُّ تَنكِيلٗا﴾: عقوبة.
الوجيز في تفسير الكتاب العزيز: ٩٦ .

﴿تُكَلَّفُ﴾ معلوم ومُتعَيَّنٌ من السياق قبله، بالإضافة إلى أنه لم يدْع داعٍ آخرُ في هذا السياق يقتضي بناء هذا الفعل لفاعله.

وإذا تدبرْتَ السياقات التي سِيق معها فعل التكليف في مقامات التشريع، وجدْتَ أن الفعل فيها قد بُني فيها جميعًا لفاعلها الحقيقي، الذي هو الجليل _سبحانه_ ، على نحو ما في قوله تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ (البقرة: ٢٨٦)، وقوله تعالى:﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ ۖ وَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ ۖ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۖ وَإِذَا قُلْتُمْ فَٱعْدِلُوا۟ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ ۖ وَبِعَهْدِ ٱللَّهِ أَوْفُوا۟ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ (الأنعام: ١٥٢)، وغير ذلك كثير؛ ولهذا، فإن الفعل بُني للفاعل في تلك الأحوال؛ لبيان مَن له حق التشريع والإلزام، وردّ كلّ فعل إلى فاعله الأحق به؛ حتى يُتبين الأصل الذي استُمدت منه جميع التكاليف.

والْملاحَظ أنْ قد تباينَ طريقا التعبير عن الفاعل في كلا السياقين السابقين ليتناغم في كل موضع منهما مع السياق الوارد فيه؛ إذ عُبر عنه بلفظ الجلالة في سياق (سورة البقرة: ٢٨٦)؛ لأن الْمقام يتعلق بالتشريع على وجه العموم، وهو من خصائص الألوهية. أما سياق (سورة الأنعام: ١٥٢) فكان الفاعل ضميرًا مستترًا، تقديره: نحن، مرادًا به تعظيمه _سبحانه_؛ للإيماء إلى تعظيم تلك الْمعاني الْمعبَّر عنها في تلك الآية، ولا سيما أنها تسوق طرَفًا من شئون اليتيم، وتحضّ على مراعاة القسط في الكيل والْميزان، والعدلِ في القول، والوفاءِ بالعهد.

_ومما بُني لِما لَم يُسم فاعله _أيضًا_ في مقامات الترهيب الفعلُ الْمنفي: ﴿لَا تُضَآرَّ﴾، من الآية الكريمة الْمذكورة سلفًا: ﴿وَٱلْوَٰلِدَٰتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ ۖ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ ٱلرَّضَاعَةَ ۚ وَعَلَى ٱلْمَوْلُودِ لَهُۥ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ۚ لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا ۚ لَا تُضَآرَّ وَٰلِدَةٌۢ بِوَلَدِهَا وَلَا مَوْلُودٌ لَّهُۥ بِوَلَدِهِۦ﴾ (البقرة: ٢٣٣).

وعند التفكّر في فاعل هذا الفعل الْمنفي: ﴿لَا تُضَآرَّ﴾، الوارد في السياق السابق، تعلم يقينًا أنه يعود على الوالديَن اللذين يُرجع إليهما في أمر الرضاع، أو غيرهما، ممن لهم حقّ الولاية على كلا الوالدَين.

وفي بناء الفعل: ﴿لَا تُضَآرَّ﴾[1] في هذا السياق لِما لم يُسم فاعله إيماءٌ إلى ضرورة أن يُمحى أثرُ كلُّ مَن يسعى إلى الإضرار بغيره، وينقضي أمره، ويأفل شأنه، وتندك صروحه؛ فلا يصبح له ذكر، وأن يُسعى إلى تحقيق ذلك بكل ما في الوُسع من جهد؛ لِما في الإضرار من الإفساد الْمحرم الذي ينكره الدين ويأباه ذوو الطباع القويمة والفِطَر السديدة، وخاصة إذا كان هذا الضرر يتعلق بزوجين كانا قد جمعهما قبل السّراح سياجٌ من الْمودة والرحمة.

ثم إن وقفة تأمّل في الْمعنى الوارد قُبيل موطن الشاهد الْمذكور، وذلك عند قوله تعالى: ﴿لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا﴾، توقفك على ما قد هيّأ لبناء هذا الفعل الْمنفي: ﴿لَا تُضَآرَّ﴾ لِما لم يُسم فاعله؛ إذ إنّ عدم تكليف الآخر بِما لا يطيق قد يكبح جماح النفوس التي تهوى إلحاق الأذى بغيرها، ويصد من عدوانها، ويقمع دوافع الإضرار لديها قدر الْمستطاع.

ثُم إنك حين تتملّى الْمعاني الواردة من مُستهل الآية: ﴿وَٱلْوَٰلِدَٰتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ ۖ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ ٱلرَّضَاعَةَ ۚ وَعَلَى ٱلْمَوْلُودِ لَهُۥ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ۚ لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا﴾، إلى أن تقف على الفعل الْمنفي:

---

(١) لم تذكر كتب التفسير القرآني _على حد اجتهادي_ شيئًا عن أثر السياق على تكوُّن بناء هذا الفعل لِما لم يُسم فاعله في سياقه هذا، ولم تُظهر كذلك بلاغة صياغته على هذا النحو.

ومن ذلك، ينظر: تفسير الراغب الأصفهاني:١/ ٤٨٣. والكشاف عن حقائق غوامض التنزيل:١/٢٨٠. والتفسير الكبير:٦/٤٦٢. ونظم الدرر في تناسب الآيات والسور:٣/٣٣٤. والتحرير والتنوير:٢/٤٣٢.

﴿لَا تُضَآرَّ﴾، تعلم يقينًا ضرورةَ أن يغيب عن هذه الحال الْمذكورة أثر كل من يسعى إلى الإضرار بأيٍّ من الطرفين؛ لأنّ مَن ترضع أولادها حقُها ألا يصدر نحوها أيُّ ضرر أو عدوان، وأن يُتصدى كذلك بكل قوة وحزم إلى مَن تُساوره نفسه فعلَ ذلك نحوها. كما أن الواجب يُحتّم كذلك ألا يُضارّ الطرفُ الآخر الْمُطلِّق، الذي يتحمّل مئونة المولود وأمِّه التي ترضعه؛ ولهذا، عدَل النظم عن تسمية الفاعل في هذا السياق إلى بناء الفعل لما لم يُسم فاعله؛ ليكون في ذلك حضٌّ على إقصاء أرباب الأذى، ومنعِهم عن التربّص لتلك العلائق الأسرية؛ لأنّ بذْلَ الْمعروف وفعلَ الجميل من كلا الطرفين شيء محمود ينبغي ألا يُتنكّر لصاحبه، أو أنْ يلحقه الأذى جزاءً على ما قدّم؛ فهذا شيءٌ مُناف لِما قد تأصل في نفوس الأسوياء من ذوي الْمروءة، الْمعرِضين عن التخلق بأخلاق ذوي الجشع، الذين تلمس فيهم الشَّره في كل معاملاتهم وصِلاتهم.

ومَن شحَذ بصيرته وأنعَمَ نظره في سياقات نفي الإضرار عن الآخرين الواردة في الكتاب العزيز يمكنه أن يعلم علمًا يقينيًّا حرصَ الشريعة الغراء على منع الإضرار بالناس، وسعيها على إحاطتهم دائمًا بالمهابة والإجلال؛ إذ لم يَرد لفعل الإضرار هذا فاعل في القرآن الكريم إلا في موطن وحيد، ما ذُكر الفاعلُ فيه إلا لأن يقرع مسامعَه النهيُ عن إيقاع الإضرار، وذلك في مقام توجيه الخطاب بالنُّصح إلى مَن رضي التسريح والفراق بالْمعروف؛ حيث يقول تعالى: ﴿وَلَا تُضَآرُّوهُنَّ لِتُضَيِّقُواْ عَلَيۡهِنَّ﴾ (الطلاق: ٦)؛ إذ بُني الفعل للفاعلِين في هذا السياق؛ لأن هؤلاء الفاعلين قد وُجّه إليهم الكلام من بدايته إلى نهايته؛ إذ يقول تعالى: ﴿أَسۡكِنُوهُنَّ مِنۡ حَيۡثُ سَكَنتُم مِّن وُجۡدِكُمۡ وَلَا تُضَآرُّوهُنَّ لِتُضَيِّقُواْ عَلَيۡهِنَّۚ وَإِن كُنَّ أُوْلَٰتِ حَمۡلٖ فَأَنفِقُواْ عَلَيۡهِنَّ حَتَّىٰ يَضَعۡنَ حَمۡلَهُنَّۚ فَإِنۡ أَرۡضَعۡنَ لَكُمۡ فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّۖ وَأۡتَمِرُواْ بَيۡنَكُم بِمَعۡرُوفٖۖ وَإِن تَعَاسَرۡتُمۡ فَسَتُرۡضِعُ لَهُۥٓ أُخۡرَىٰ﴾؛ تنبيهًا لهم على ضرورة مباينة سبُل الطغيان، ومجانبة الشطط والحيف في التعامل؛

إصلاحًا لِما قد يعتري أمر الطلاق من إحن وحفائظ إذا تُركت وشأنها استشرى فسادها، واستفحل داؤها وفتّ في عضد الأمة، وكان سببًا في قطع الصلات والروابط بين الأفراد والمجتمعات.

وأما ما عدا هذا الْموضع فبُني هذا الفعل _كما هو معهود في القرآن الْمجيد_ لِما لم يُسم فاعله، وذلك كما في نحو قوله تعالى: ﴿وَلَا يُضَآرَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ﴾ (البقرة: ٢٨٢)؛ إيماء إلى ضرورة إقصاء مُنشئي الضرر ومُصدّري الخطر للإنسانية، واقتلاع كل مصدرٍ لذلك من أساسه؛ حتى لا يتطاير شرره، ويقوى أذاه وضرّه؛ فتشيع الفِتن، ويعمّ الفساد في الأرض.

_ومما بُني لِما لم يُسم فاعله _أيضًا_ في مقامات الترهيب الفعلُ الْمنفي: ﴿وَلَمْ يُؤْتَ﴾، من الآية الكريمة: ﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا ۚ قَالُوٓا۟ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ ٱلْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِٱلْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ ٱلْمَالِ ۚ قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُۥ بَسْطَةً فِى ٱلْعِلْمِ وَٱلْجِسْمِ ۖ وَٱللَّهُ يُؤْتِى مُلْكَهُۥ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾ (البقرة: ٢٤٧).

وحين ترجع بهذا الفعل المنفي: ﴿وَلَمْ يُؤْتَ﴾[1] إلى فاعله الحقيقي تعلم يقينًا أنه الله _تعالى_؛ فهو القادر على أن يهب مَن يشاء ما يشاء، على النّحو الذي يريد ويختار.

(١) حين تراجع كتب التفسير القرآني التي كانت عناية مؤلفيها مُنصبة على إظهار بلاغته تجد أنها _على حد اجتهادي_ لَم تتحدث عن أثر السياق على ترجيح بناء هذا الفعل لِما لم يُسم فاعله، ولم تُظهر كذلك بلاغة صياغته على هذا النحو.
ومن ذلك، ينظر: تفسير الراغب الأصفهاني: ١/ ٥٠٨. والكشاف عن حقائق غوامض التنزيل: ٢٩٢/١. والتفسير الكبير: ٦/ ٥٠٤. ونظم الدرر في تناسب الآيات والسور: ٣/ ٤١٧. والتحرير والتنوير: ٢/ ٤٩١.

ولعل الغرض من بناء فعل الإيتاء الْمنفي في هذا السياق لِما لم يُسم فاعله في هذا السياق: الإيْماء إلى تناسيهم الواهب _سبحانه_ الذي قضى أن لا معقب لحكمه، ولا رادّ لإرادته، ولا دافع لمشيئته. وهي إشارة صريحة تكشف شيئًا مما يعتلج في خوالجهم وتُكنّه صدورهم، من اختلالٍ في الْمقاييس والأعراف التي تعارفوا عليها ويحتكمون إليها في شأن الحاكمية والتشريع، وهذا يتناسب تمام الْمناسبة مع زيف ما يعتقدون، وخُبث ما يُؤمّلون؛ فلو قد ذكروا لفظ الجلالة في سياق كلامهم هذا لكان ذلك منهم إقرارًا أنهم مؤمنون باختياره _سبحانه_ مُذعنون لقضائه، وهذا مُباين تمام المباينة لِما يُصرون عليه، ويلحون في طلبه.

ثم إن الْمتأمل الْمعانيَ الواردةَ في الآية نفسها قبل موطن الشاهد: ﴿وَلَمْ يُؤْتَ﴾ (البقرة: ٢٤٧)، عند قوله تعالى: ﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا ۚ قَالُوٓا۟ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ ٱلْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِٱلْمُلْكِ مِنْهُ﴾ (البقرة: ٢٤٧)، يُدرك يقينًا أنها مما مَهّدت لبناء الفعل الْمنفي: ﴿وَلَمْ يُؤْتَ﴾ لِما لم يُسم فاعله؛ حيث إن ذِكر لفظ الجلالة في قول نبيهم لهم: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا﴾، فيه ما يبعث على الاستسلام الْمطلق لسلطان الألوهية، ويحض القلوب اليقظةَ على الامتثال الأوفى لِما قضاه _سبحانه_ وأوجبه، ولكنّ هؤلاء القوم قد تناسوا أن هذا حق أصيل له وحده _سبحانه_، نافرين في ذلك عن تعاليم الدين القويم النفور كله؛ مقيمين عقولهم الآسنة حاكمةً لهم فيما يُلقَى عليهم من تكاليف ربانية، وواجبات دينية؛ ولهذا، تراهم أسقطوا من حياتهم ركنًا أصيلاً تقوم به الدنيا ولا تقوم من دونه، ألا وهو تدبيره _سبحانه_ الذي لا تتصلح الحياة إلا به، ومِن ثَمّ جاء اعتراضهم على نبيهم _عليه السلام_، الذي سِيق فيه الفعل الْمنفي: ﴿وَلَمْ يُؤْتَ﴾ مبنيًّا لِما لم يُسم فاعله؛ متغافلين فيه ذكرَ الجليل _سبحانه_، واضعين أنفسهم في مقام الْمشرِّع؛ حيث قالوا: ﴿أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ ٱلْمُلْكُ عَلَيْنَا

﴿وَنَحْنُ أَحَقُّ بِٱلْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ ٱلْمَالِ﴾؛ إذ الأصل عند أكثرهم ألا يكون إلا الذي اختاروه هم، وإن تعارض هذا مع شِرعته _سبحانه_ ومِنهاجه، ولهذا ذَكّرهم نبيهم _عليه السلام_ بما قد يردهم إلى رُشدهم؛ إذ أَرجَع الأمر كله لله _سبحانه_ حسب مشيئته واختياره؛ حيث قال _فيما قص القرآن الكريم_: ﴿قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُۥ بَسْطَةً فِى ٱلْعِلْمِ وَٱلْجِسْمِ ۖ وَٱللَّهُ يُؤْتِى مُلْكَهُۥ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾.

وعلى نحو تلك الطريقة من الصياغة الْمؤدية لِمثل هذا الْمعنى جاء فعل الإيتاء: ﴿أَن يُؤْتَىٰٓ﴾، الْمسوق في قوله تعالى: ﴿وَلَا تُؤْمِنُوٓا۟ إِلَّا لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ ۗ قُلْ إِنَّ ٱلْهُدَىٰ هُدَى ٱللَّهِ أَن يُؤْتَىٰٓ أَحَدٌ مِّثْلَ مَآ أُوتِيتُمْ أَوْ يُحَآجُّوكُمْ عِندَ رَبِّكُمْ ۗ قُلْ إِنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾ (آل عمران: ٧٣)؛ فلو قد بُني الفعل: ﴿يُؤْتَىٰٓ﴾ لفاعله الحقيقي، وهو الجليل _سبحانه، وأسند هؤلاء الْمخالِفون هذا الفعل إلى لفظ الجلالة صراحة لكان منهم ما يُشبه الإقرار بنقيض ما قالوه؛ لأنهم قد تعاظموا أن يُؤتَى أحدٌ النبوة غيرهم؛ ولهذا، كان إثبات لفظ الجلالة في سياق الرد عليهم، عند قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾، فيه كشفٌ لزيفهم، وردٌّ لجهالتهم التي تناسوا معها أن الأمر كله لله _سبحانه_؛ لذا ناسب أن يظهر لفظ الجلالة في سياق دحض زعمهم، التي يظهر وجه فسادها من أول وهلة يُسمع فيها اسم الله _سبحانه_.

لكن، إذا كان هذا الْمعنى الْمذكور سلفًا يتناسب مع بناء فعل الإيتاء هذا لِما لم يُسم فاعله في سياق الحديث مع أهل الكتاب، فلِم بُني فعل الإيتاء لِما لم يُسم فاعله كذلك في موضعين من المواضع التي سِيق الحديث فيها لأهل الإيمان، وهما الفعلان: ﴿يُؤْتَ﴾، ﴿أُوتِىَ﴾، الْمذكورَين

في قوله تعالى: ﴿يُؤْتِي ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ (البقرة: ٢٦٩)؟

ولعل بناء فعل الإيتاء في هذين الْموضعين السالفين لِما لَم يُسم فاعلهما قد كان لغرضين: أولاهما_ أن فعل الإيتاء قد أُسند لفاعله الحقيقي في أول الآية نفسها؛ إذ يقول تعالى: ﴿يُؤْتِي ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ﴾، ثُم وصل بعض الكلام ببعضه، دون أن يكون هناك مسوغ آخر قد وُجد يَطْلب بناء الفعل لفاعله مرة أخرى، وخاصة أنْ لم يُفصل بين الجُمل الثلاث التي ذُكر فيها فعل الإيتاء بأي جُمل أخرى.

والآخر_ أن بناء الفعل للمفعول، في الفعلين: ﴿يُؤْتَ﴾،﴿أُوتِيَ﴾، كان تمهيدًا لحذف مفعول الإيتاء الأول، العائد على مَن تفضّل الله _تعالى_ عليهم بذلك الإيتاء، وفي حذف الْمفعول الأول ما يومئ إلى كثرة مَن غمرهم جوده _سبحانه_ على نحو يضيق إذا ذُكر الْمفعول الأول في هذا السياق.

هذا، وبناء فعلَي الإيتاء: ﴿يُؤْتَ﴾،﴿أُوتِيَ﴾ (البقرة: ٢٦٩) السالفين لِما لم يُسم فاعلهما كان على خلاف الْمعهود في النظم القرآني، الذي يؤثر بناء فعل الإيتاء لفاعله الحقيقي _سبحانه_ في سياقات إيتاء الخير، إذا كان الكلام صادرًا من الجليل _سبحانه_، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ ٱللَّهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا۟ عِبَادًا لِّى مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن كُونُوا۟ رَبَّٰنِيِّۧنَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَٰبَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ﴾ (آل عمـــــران: ٧٩)، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ ۖ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَٰعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ (النســـاء: ٤٠)، وقولـــه تعـــالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا ﴿١٤٥﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ وَأَصْلَحُوا۟ وَٱعْتَصَمُوا۟ بِٱللَّهِ وَأَخْلَصُوا۟ دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَسَوْفَ يُؤْتِ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ (النساء: ١٤٥، ١٤٦)، والمواضع كلها تسير على هذا النحو من

التعبير؛ لتعظيم الْمنة، وبيان أن الذي يُؤتي هذا الفضل الجميل هو الأحق بالألوهية والأجدر بخالص العبودية، وفي ذلك ردٌّ للْمعرضين إلى السبيل القويم، على نحوٍ من التعبير قد يجتذب النفوس النافرة، ويستنقذ الْمخالفين من أوحال الْمعاصي وشراكها الْمتضافرة.

_ومما بُني _أيضًا_ لِما لم يُسم فاعلها في سياقات الترهيب الأفعالُ: ﴿تُرْجَعُونَ، تُوَفَّىٰ، لَا يُظْلَمُونَ﴾[1]، الواردة في سياق قوله تعالى:﴿وَٱتَّقُواْ يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ (البقرة: ٢٨١).

وعند الرجوع بالفعل: ﴿تُرْجَعُونَ﴾ إلى فاعله تعلم يقينًا أنّ المقصود منه جميع الأنام من لدن سيدنا آدم _عليه السلام_ إلى أن يرث الله _تعالى_ الأرض ومَن عليها.

ولعل في بناء هذا الفعل: ﴿تُرْجَعُونَ﴾ لما لم يُسمّ فاعله في هذا السياق إرادةَ معنى العموم والشمول، الذي يشمل رجوع جميع الأنام يوم الْتناد إلى بارئهم _سبحانه_؛ إذ لو بُني الفعل للمعلوم فقيل في غير القرآن الكريم: (تَرجعون)، ببناء الفعل للفاعل؛ لتُوُهّم أن هذا ربما يتعلّق ببعض الأنام دون بعضهم.

كما يتبيّن لك _أيضًا_ من بناء هذا الفعل: ﴿تُرْجَعُونَ﴾ لِما لم يُسم فاعله في هذا السياق أنَّ جميع الأنام في هذا اليوم الْمشهود لا يُخيَّرون في شأن رجوعهم إلى الْمولَى _سبحانه_، بل يُقسرون عليه قسرًا؛ لأنهم ليسوا

(١) لم يكشف أيٌّ من أصحاب التفاسير الذين كانت عنايتهم منصبة على إظهار بلاغة القرآن الكريم عن أثر السياق على ترجيح عدم ذِكر فاعلٍ لهذه الأفعال في سياقاتها تلك، ولا عنوا كذلك بإظهار بلاغة بنائها لِما لَم يُسم فاعلها _على حد اجتهادي. ومن ذلك، ينظر: تفسير الراغب الأصفهاني: ١/ ٥٨٧. والكشاف عن حقائق غوامض التنزيل: ١/٣٢٢. والتفسير الكبير: ٧/ ٨٧. ونظم الدرر في تناسب الآيات والسور: ٤/ ١٤٣، ١٤٤. والتحرير والتنوير: ٣/ ٩٧.

فاعلين لهذا الرجوع، وإنما هم مضطرون إلى التسليم الهادئ لهذا الْمصير، والانقياد له في وداعة تامّة وطواعية مُطلقة؛ لعجزهم عن نقض ما هم فيه أو بعضه، وقصورهم عن دفعه كذلك أو دحره؛ ولهذا، فإن مَن يُنعم نظره في كتاب الله _سبحانه_ ينجلي له أنّ جميع السياقات التي تحدثت عن رجوع الخلْق إلى بارئهم _سبحانه_ يوم الحساب بُني فيها فعل الرجوع لِما لم يُسم فاعله، ولَم يُستثن من ذلك أيُّ موضع؛ ومن ذلك قوله تعالى: ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقۡرِضُ ٱللَّهَ قَرۡضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضۡعَافًا كَثِيرَةً وَٱللَّهُ يَقۡبِضُ وَيَبۡصُۜطُ وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ﴾ (البقرة: ٢٤٥)، وقوله تعالى: ﴿أَفَغَيۡرَ دِينِ ٱللَّهِ يَبۡغُونَ وَلَهُۥٓ أَسۡلَمَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ طَوۡعًا وَكَرۡهًا وَإِلَيۡهِ يُرۡجَعُونَ﴾ (آل عمـــران:٨٣)، وقولـــه تعـــالى: ﴿إِنَّمَا يَسۡتَجِيبُ ٱلَّذِينَ يَسۡمَعُونَۘ وَٱلۡمَوۡتَىٰ يَبۡعَثُهُمُ ٱللَّهُ ثُمَّ إِلَيۡهِ يُرۡجَعُونَ﴾ (الأنعام: ٣٦)، وقوله جل شأنه: ﴿هُوَ يُحۡىِۦ وَيُمِيتُ وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ﴾ (يونس: ٥٦)، وجميع المواضع في الكتاب العزيز تسير على هذه السبيل؛ قصدًا إلى إظهار العجز التام عن التمرد على هذا الإرجاع، ومراعاةً تَمامَ الإحاطة، التي لا يُستثنَى منها مَلكٌ مهما قوِي، أو وجيهٌ مهما شرف؛ لأن أمر الْمعاد حقٌّ مُبين يشمل جميع الْورى ويعمّهم، حتى إذا استشعر الْمرء فداحة هذا الخطب ظلّ دائبًا يَقِظًا ووجِلاً من خطورة تلك الحال؛ لذا عُطف عليه قوله: ﴿ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفۡسٖ مَّا كَسَبَتۡ﴾.

والْمتأمل فيما سبق الفعل: ﴿تُرۡجَعُونَ﴾ من معنًى، يجد أنّ ما جُعل هذا الفعل وصفًا له قبلُ، وهو قوله تعالى: ﴿يَوۡمًا﴾، الذي يبلغ بك الفزع منتهاه حين تقرأ أحد الأوصاف القرآنية لهذا اليوم؛ إذ يقول تعالى: ﴿فَكَيۡفَ تَتَّقُونَ إِن كَفَرۡتُمۡ يَوۡمٗا يَجۡعَلُ ٱلۡوِلۡدَٰنَ شِيبًا﴾ (المزمـل: ١٧)؛ فـورود: ﴿يَوۡمًا﴾ نكـرة دالة على تفخيم شأنِ هذا اليوم وتهويل أمره؛ ومن ثَمَّ، تُدرك جليًّا أن تلك الْمعاني التي انطوى عليها تنكير: ﴿يَوۡمًا﴾ قد مَهّدت لبناء هذا الفعل:

﴿تُرۡجَعُونَ﴾ لِما لم يُسم فاعله؛ إذ أبرز تفخيم هذا اليوم وبيانُ هوله انعدامَ حيلة الخلق في إيجاد معقلٍ آمن يتحصنون به؛ كي يعصمهم من الوقوف بين يدي الله _سبحانه_ في هذا اليوم؛ ولهذا، تأكّد لهم أن رجوعهم إلى بارئهم _سبحانه_ صار أمرًا لا مفر من الانقياد المطلق له.

وبُني قوله تعالى: ﴿تُوَفَّىٰ﴾ لِما لم يسم فاعله _أيضًا_ في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفۡسٖ مَّا كَسَبَتۡ﴾؛ لتعيُّن الفاعل في هذا السياق، إذ هو الله _جلّ شأنه_. وعند التدبر فيما سبق الفعل: ﴿تُوَفَّىٰ﴾ _موطن الشاهد_ تجد أنّ ما ذُكر قبله عند قوله تعالى: ﴿تُرۡجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِ﴾، قد أعان على الإتيان بهذا الفعل: ﴿تُوَفَّىٰ﴾ مبنيًّا لِما لم يُسم فاعله؛ لأنّ مَن حكم على جميع الخلائق بالرجعة إليه في هذا اليوم الْمشهود طائعين أو مُكرهين مُتعيَّنٌ في حقه أنه وحده هو القادر على أن يُوفّيَهم جزاء ما عملت أيديهم؛ لذلك، لَم يدّع أحدٌ من الأجيال الْمتعاقبة أو العصور المتلاحقة أنه يوفِّي الأنام في يوم القيامة أجورهم، أو يضع عنهم إصرهم وخوانق الأغلال الْمحاصرة رقابهم؛ لأجل ذلك، لَم يُفصَح عن فاعلٍ لهذا الفعل في القرآن الْمجيد إلا في سياقات تربية الْمهابة من سلطان الألوهية؛ ومن ذلك قوله تعالى: ﴿يَوۡمَئِذٖ يُوَفِّيهِمُ ٱللَّهُ دِينَهُمُ ٱلۡحَقَّ وَيَعۡلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡحَقُّ ٱلۡمُبِينُ﴾ (النور: ٢٥). ولعل السر الذي يكمن خلف إظهار لفظ الجلالة في هذا الْسياق: نشْرُ الْهيبة من مقام الألوهية الجليل؛ إكبارًا للسبب الذي سيق لفظ الجلالة لأجله، وتهويلاً من شأن ما اجتُرِح وبيان مدى شناعته وسوء جُرمه؛ لأن السياق هذا فيه بيانٌ لجزاء قذف المحصنات؛ حيث يقول _سبحانه وتعالى_ قُبَيل هذه الآية: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَرۡمُونَ ٱلۡمُحۡصَنَٰتِ ٱلۡغَٰفِلَٰتِ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ لُعِنُواْ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ ٢٣ يَوۡمَ تَشۡهَدُ عَلَيۡهِمۡ أَلۡسِنَتُهُمۡ وَأَيۡدِيهِمۡ وَأَرۡجُلُهُم بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ (النور: ٢٣،٢٤)؛ فكان جديرًا أن يُذَكّروا بالإله الحق، القادرِ على

كل نفس. وفي ذلك مزيدُ تحذيرٍ من ارتكاب مثل تلك البذاءات؛ لأنه إذا كان كل عذاب يتبدّى بأسُه من نفاذ بأس فاعله، فما الحال إذا كان الذي يجازي على ذلك هو الله _سبحانه وتعالى_؟! وفيه _أيضًا_ تهدئةٌ لهياج الْمُعتدَى عليهم وتسكينٌ لغضبهم؛ لأنهم إذا علموا أن الله _سبحانه وتعالى_ سيقتص لهم سكنت فورتهم، واطمأنت سريرتهم، وهدأت حدّتهم، وفاء رُواء الطمأنينة على حياتهم. وتزدادُ تلك المعاني وتسمو مع وضع لفظ الجلالة الْمُظهَر موضع المضمر، والتوكيد بضمير الفصل: ﴿هُوَ﴾، في ختام الآية، عند قوله تعالى: ﴿وَيَعْلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ ٱلْمُبِينُ﴾؛ فهو أسلوب من القول يبعث على زلزلة جَنان مَن تساوره نفسُه الإقدامَ على تلك الجريرة النكراء، حين يتذكّر مصيره وهو في قبضة الله _سبحانه وتعالى_؛ فيعرف مقدار عجزه، وسقوط هِمته عن مجابهة ما ساقه إليه وبالُ أمره؛ فربما يردعه ذلك عن الشرور؛ اتّقاءً للعقاب، أو يدفعه ذلك إلى فعل الخيور؛ اغتنامًا للزّلفى وحسن المآب.

وبُني الفعل الْمنفي: ﴿لَا يُظْلَمُونَ﴾ لِما لم يسم فاعله، في هذا السياق؛ لتعيّنه _سبحانه_ بهذا الْمعنى حقيقة ووضعًا. ومَن يتأمل الْمعاني الواردة قبل موطن الشاهد: ﴿لَا يُظْلَمُونَ﴾ يفطن أنها مما ساعدت بجلاء على إبراز تعيّن الفاعل _الذي لم يذكره السياق_؛ إذ سيق هذا الشاهد في أعقاب: ﴿كُلُّ﴾، ﴿مَا﴾ الدّالين على العموم والشمول؛ وهذا يمنع أي مخلوق أن يُوفِّي: ﴿كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ﴾، على هذا النحو من العموم الوارد في السياق، وإنما يتعين هذا في حقه _سبحانه وتعالى_ وحده، لا ينازعه فيه غيره، ومن كانت هذه حاله تعيّن في حقه وحده _أيضًا_ انتفاء الظلم على وجه العموم؛ لأنّ من كان قادرًا على أن يُوفي جميع الخلائق جزاءهم كاملاً غير منقوص، قادرٌ كذلك وحده ألا يظلمهم؛ ولهذا، فإن السياقات التي صاحبها معنى العموم لم يأت معها هذا الفعل مبنيًّا للفاعل غالبًا، وإنما كان

مبنيًّا لما لم يُسم فاعله، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ فَكَيْفَ إِذَا جَمَعْنَٰهُمْ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾ (آل عمران: ٢٥)، ﴿ وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَغُلَّ ۚ وَمَن يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾ (آل عمران: ١٦١)، ﴿ وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُوا۟ ۖ وَلِيُوَفِّيَهُمْ أَعْمَٰلَهُمْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾ (الأحقاف: ١٩)، وأكثر المواضع تسير على هذا النحو من الصياغة؛ لإقامة الْحجة على عجز كلِّ ما خلا الجليل _سبحانه_ عن بلوغ هذا الْمعنى، أو القيام به على أي وجه كان، وتفرده _سبحانه_ بذلك، من دون حاجة إلى ذكر أي اسم من أسمائه أو صفة من صفاته؛ لأن الأمر في حقه _سبحانه_ أهون من ذلك.

أما السياقات التي أثبتت الْمسند إليه العائد على الْمولى _سبحانه_ منفيًّا عنه الظلم فالملاحَظُ فيها أنها أظهرت اعتداءً مّا يتنافى مع قداسة بعضٍ من أسمائه _سبحانه_ الحسنى وصفاته العلى؛ فكان في التصريح بالمسند إليه الحقيقي وجعلِه نُصب أعينهم في تلك السياقات ومثيلاتها تذكيرٌ بتلك الْمعاني التي تفيض من هذه الأسماء الحسنى، ومن ثَمّ يدركون مدى تقصيرهم وتماديهم في مروقهم وعقوقهم. بيْد أنّ الْمسند إليه هذا جاء على أساليب من التعبير متباينة في النظم الكريم، منها مجيؤه على صورة: اسم (أن)، واسم (ليس) كما في قوله تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴾ (آل عمران: ١٨٢)، و(الأنفال:٥١). ومجيؤه كذلك على صورة: اسم (ما) النافية للجنس، العاملة عمل (ليس)، كما في قوله تعالى: ﴿ مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا ۗ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴾ (فصلت: ٤٦).

هذا، ووقفةُ تأملٍ مع هذه السياقات السالفة _بعد توفيق العليم الحكيم سبحانه_ كفيلة أن تُظهر الأسرار الداعية إلى الإفصاح عن لفظ الجلالة فيها؛ ولعل ذِكره في سياقَي نفي الظلم عند قوله تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ

﴿أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ (آل عمران: ١٨٢)، و(الأنفال:٥١): فيه استجلابٌ لمعنى الألوهية في هذه السياقات، مع ما يستلزمه لفظ الجلالة من استشعار صفات الكمال والجلال في الأفئدة والأذهان؛ لأن السياقَين يتحدثان عن عبادة الله _سبحانه وتعالى_ ووحدانيته، ونبذِ كلّ نقصٍ افتروه عليه _سبحانه_ كذبًا وبهتانًا؛ إذ إن الآية الواردة في سورة آل عمران ذُكرت في أعقاب قوله تعالى: ﴿لَّقَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ سَنَكْتُبُ مَا قَالُواْ وَقَتْلَهُمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿١٨١﴾﴾. كما أن آية (سورة الأنفال: ٥١) _أيضًا_ ذُكرت عقيب آيتين تُبرزان مصير طائفتين نبذوا سبيل الوحدانية، وشاقّوا الله _سبحانه_؛ حيث يقول تعالى: ﴿إِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ غَرَّ هَٰٓؤُلَآءِ دِينُهُمْ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٩﴾ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ وَذُوقُواْ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿٥٠﴾﴾؛ ولهذا، فإنّ ذكر لفظ الجلالة في سياقَي سورة آل عمران وسورة الأنفال عند قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ﴾: فيه بيان جليٌّ لسوء ما اجترحوه في حق مَن له الألوهية الحقة، والعدل الفريد الذي يسحق الدّعاوى الواهية غير المحقّة؛ لذا كان من مقتضى الحال إيثار لفظ الجلالة في هذا الْمقام دون غيره من أسماء الله _تعالى_ الحسنى؛ وفي هذا ما قد يردّ الْمخالفين إلى النهج القويم، ويُذكرهم بحقّه _سبحانه وتعالى_ عليهم من حيث التعظيم والإجلال والتّسليم.

وفي ذِكر ما يدل على الربوبية في سياق نفي الظلم عند قوله تعالى: ﴿مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ (فصلت: ٤٦)، تذكيرٌ لطيفٌ بِلازم معنى الربوبية الجليل، الذي يتنافى مع الظّلم؛ من حيث إيصال الخير وجميع المنافع إلى الأنام، ودرء مداخل الشر وجميع الْمفاسد عنهم في جميع الأحوال. ومِن أعظم الْمنافع التي يتنعم بها أولو

الألباب ما أوردته الآيات السابقة لهذه الآية، من حيث إنزال الكتب وإرسال الرسل؛ حيث يقول تعالى: ﴿وَلَوۡ جَعَلۡنَٰهُ قُرۡءَانًا أَعۡجَمِيّٗا لَّقَالُواْ لَوۡلَا فُصِّلَتۡ ءَايَٰتُهُۥٓۖ ءَأَعۡجَمِيّٞ وَعَرَبِيّٞۗ قُلۡ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ هُدٗى وَشِفَآءٞۖ وَٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ فِيٓ ءَاذَانِهِمۡ وَقۡرٞ وَهُوَ عَلَيۡهِمۡ عَمًىۚ أُوْلَٰٓئِكَ يُنَادَوۡنَ مِن مَّكَانِۭ بَعِيدٖ ٤٤ وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا مُوسَى ٱلۡكِتَٰبَ فَٱخۡتُلِفَ فِيهِۚ وَلَوۡلَا كَلِمَةٞ سَبَقَتۡ مِن رَّبِّكَ لَقُضِيَ بَيۡنَهُمۡۚ وَإِنَّهُمۡ لَفِي شَكّٖ مِّنۡهُ مُرِيبٖ ٤٥﴾؛ ففي هذا إيْماءٌ إلى أنه لا ينبغي لذي لُبٍّ أن يحيد عن منهج ربه _سبحانه وتعالى_ أو أن ينثني عن سبيله وهديه، وخاصة بعد إقامة تلك البراهين الساطعة، وإظهارِ هذه الحقائق الدامغة، التي من شأنها أن يُستدل بها على عدْل ربّ العالمين _سبحانه_؛ فهو مالك كلِّ شيء، وسببُ كلّ خير؛ ومَن كان هذا وصفه فهضْم الحقوق ليس إليه.

هذا، وموطن الشاهد: ﴿وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ﴾ لَم يأت معه نائبٌ للمفعول الْمُطلق في سياقه هذا، لكنّه جاء مذكورًا في سياقات أُخَر من الكتاب العزيز، ومن ذلك قولُه جلّ شأنه: ﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُمۚ بَلِ ٱللَّهُ يُزَكِّي مَن يَشَآءُ وَلَا يُظۡلَمُونَ فَتِيلًا﴾ (النساء: ٤٩)، وقوله تعالى: ﴿إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدۡخُلُونَ ٱلۡجَنَّةَ وَلَا يُظۡلَمُونَ شَيۡـٔٗا﴾ (مريم: ٦٠).

ولعل العلة التي لأجلها سِيق نائبا المفعول المطلق في هذين السياقَين: أن هاتين الآيتين _وما جاء على نحوهما_ تذْكران شيئًا من الأعمال الصالحة، ومعلوم أن بعض الناس قد يخشى ذهاب أيٍّ منها سدى، ولو يسيرًا؛ فكان مُقتضى الحال أن يُؤكد لهم أنّ تلك الأعمال التي اجتهدوا في كسْبها ما وسعهم الجهد لن يغيض منها: ﴿فَتِيلًا﴾ ولا ﴿شَيۡـٔٗا﴾، ولن يضيع سعيهم في طرق تحصيلها سُدى. أما موطن الشاهد، وهو قوله تعالى: ﴿وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ﴾ فسياقه عام يتناول مطلق الكسب؛ لذلك كان المقام خليقًا أن ينفي عنه مطلق الظلم. والله أعلم.

الخاتمة

وبعد هذه الوقفة اليسيرة التي تخللها عرضٌ تحليلي لبعضٍ من شواهد بناء الفعل لِما لم يُسم فاعله في سورة البقرة؛ فإنّك لن تعدم فائدة إذا تأملت سياقات هذا الحذف القرآني، بل ينفتح ذهنك على قدر ليس هيّنًا من الفكر البلاغي الجدير بالتأمل؛ ومن ثَمّ يطيب للباحث في هذا الْمقام أن يسوق بعض النتائج التي هُدِي إليها البحث بتوفيق من الله _تعالى_ وحده، مشفوعةً ببعض التوصيات التي تعلو الفائدة بها، ومن ذلك ما يأتي:

١_ أظهر البحث وجود علاقة وثيقة بين الأسلوب البلاغي وما يُذكر قبله من معانٍ مُهيِّئة لتكوّنه، كما أبرز كذلك أثر السياق في ترجيح الْمعنى البلاغي المراد.

٢_كشفَت الدراسة عن الدلائل السياقية التي رجّحت أن الأفعال التي بُنيت لِما لم يُسم فاعلها في شواهدها وردت على هذا النحو من الصياغة لِمُسوّغات معنوية ومقامية اقتضاها الْمقام وتطلَّبها السياق.

٣_ من خلال جمع الصيغ الْمماثلة _قدر الْمستطاع_ لموطن الشاهد نفسه في القرآن الكريم؛ تم التوصّل إلى ما إذا كان الْمعنى الْمفاد من هذا الأسلوب قد اتّحد في الْمواضع التي ورد فيها جميعًا، وبذلك يكون خصيصة من خصائص الأسلوب القرآني الْمعبَّر به في هذا الْمقام، أم زاد مقامٌ مّا بفائدة أخرى على تلك الْمذكورة.

٤_اهتدى البحث إلى استنباط براهين وثيقة تقود إلى الْمعنى البلاغي الذي تولّد عن ورود الشاهد على تلك الصياغة في سياقه الوارد فيه.

التوصيات: يُوصي البحث أن يُدرس هذا الموضوع في القرآن الكريم كله، وكذا الشعر والنثر؛ استخراجًا للفوائد البلاغية، ووصولاً إلى المقدمات التي هيأت لورود الأساليب على هذا النحو من الصياغة، ووقوفًا ما تكتنف تلك الأساليب من الأسرار البلاغية التي تُضفي على السياق خصوبة وعلى الأسلوب جمالاً.

ثبَت المصادر والمراجع

أولاً: الكتب المطبوعة:

١_التحرير والتنوير= «تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد»، محمد الطاهر بن محمد بن محمد الطاهر بن عاشور التونسي (ت: ١٣٩٣هـ)، الدار التونسية للنشر، تونس، ١٩٨٤هـ.

٢_تفسير الراغب الأصفهاني (ت: ٥٠٢هـ)، تح: د/ عادل بن علي الشِّدِي، دار الوطن، الرياض، بلد الحرمين الشريفين، ط١، ١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٣م.

٣_تفسير الراغب الأصفهاني، أبو القاسم الحسين بن محمد، المعروف بالراغب الأصفهانى (ت: ٥٠٢هـ)، تح: د/ محمد عبد العزيز بسيوني، كلية الآداب، جامعة طنطا، ط١، ١٤٢٠هـ / ١٩٩٩م

٤_تفسير القرآن، أبو المظفر، منصور بن محمد بن عبد الجبار بن أحمد المروزى السمعاني، التميمي، الحنفي، ثم الشافعي (ت: ٤٨٩هـ)، تح: ياسر بن إبراهيم وغنيم بن عباس بن غنيم، دار الوطن، الرياض، بلد الحرمين الشريفين، ط١، ١٤١٨هـ/ ١٩٩٧م.

٥_التفسير الكبير، أبو عبد الله محمد بن عمر بن الحسن بن الحسين التيمي الرازي الملقب بفخر الدين الرازي خطيب الري (ت: ٦٠٦هـ)، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط٣، ١٤٢٠هـ.

٦_جامع البيان عن تأويل آي القرآن، محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الآملي، أبو جعفر الطبري (ت: ٣١٠هـ)، تح: أحمد محمد شاكر، مؤسسة الرسالة، ط١، ١٤٢٠هـ/ ٢٠٠٠م.

٧_سنن الترمذي، محمد بن عيسى بن سَوْرة بن موسى بن الضحاك، الترمذي، أبو عيسى،(ت: ٢٧٩هـ)، تح: بشار عواد معروف، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ١٩٩٨م.

٨_صحيح مسلم= المسند الصحيح المختصر بنقل العدل عن العدل إلى رسول الله _صلى الله عليه وسلم_، مسلم بن الحجاج أبو الحسن

القشيري النيسابوري (ت: ٢٦١هـ)، تح: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، د.ت.

٩_كتاب الصناعتين، أبو هلال الحسن بن عبد الله بن سهل بن سعيد بن يحيى بن مهران العسكري (ت: نحو ٣٩٥هـ)، تح: علي محمد البجاوي، ومحمد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العصرية، بيروت، ١٤١٩ هـ .

١٠_الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل، وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، أبو القاسم محمود بن عمرو بن أحمد، الزمخشري جار الله (ت: ٥٣٨هـ)، دار الكتاب العربي، بيروت، ط٣ ، ١٤٠٧هـ.

١١_مفتاح العلوم، يوسف بن أبي بكر بن محمد بن علي السكاكي الخوارزمي الحنفي أبو يعقوب (ت: ٦٢٦هـ)، مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأخويه، مصر، ١٣١٨هـ.

١٢_نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، إبراهيم بن عمر بن حسن الرباط بن علي بن أبي بكر البقاعي (ت:٨٨٥هـ)، دار الكتاب الإسلامي، القاهرة، د.ت.

١٣_الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، أبو الحسن علي بن أحمد بن محمد بن علي الواحدي، النيسابوري، الشافعي (ت: ٤٦٨هـ)، تح: صفوان عدنان داوودي، دار القلم ، الدار الشامية، دمشق، بيروت، ط١، ١٤١٥هـ.

ثانيًا: الرسائل العلمية:

١_الإيضاح، للخطيب القزويني، تح: أ.د/ فرج محمد فرج أحمد، رسالة دكتوراه، مخطوط في كلية الدراسات الإسلامية والعربية للبنين بالقاهرة، ١٤١٤هـ/ ١٩٩٣م.

References :

awlaan: alkutub almatbueati:

1_altahrir waltanwiru= <<tahrir almaenaa alsadid watanwir aleaql aljadid min tafsir alkitaab almajid>>, muhamad altaahir bin muhamad bin muhamad altaahir bin eashur altuwnusii (t: 1393h), aldaar altuwnisiat lilnashri, tunis, 1984hi.

2_tafsir alraaghib al'asfahani (t: 502hi), taha: du/ eadil bin ealiin alshshidi, dar alwatanu, alrayad, balad alharamayn alsharifayni, ta1, 1424h/ 2003m.

3_tafsir alraaghib al'asfahani, 'abu alqasim alhusayn bin muhamad, almaeruf bialraaghib al'asfuhanaa (t: 502hi), taha: du/ muhamad eabd aleaziz basyuni, kuliyat aladab, jamieat tanta, ta1, 1420h / 1999m

4_tafsir alqurani, 'abu almuzafar, mansur bin muhamad bin eabd aljabaar bin 'ahmad almarawzaa alsimeani, altamimi, alhanafii, thuma alshaafieiu (t: 489hi), tah: yasir bin 'iibrahim waghanim bin eabaas bin ghunimi, dar alwatanu, alrayad, balad alharamayn alsharifayni, ta1, 1418hu/ 1997m.

5_altafsir alkabiru, 'abu eabd allah muhamad bin eumar bin alhasan bin alhusayn altaymiu alraazi almulaqab bifakhr aldiyn alraazii khatib alrayi (t: 606h), dar 'iihya' alturath alearabi, bayrut, ta3, 1420h.

6_jamie albayan ean tawil ay alquran, muhamad bin jarir bin yazid bin kathir bin ghalib alamli, 'abu jaefar altabari (t: 310hi), taha: 'ahmad muhamad shakir, muasasat alrisalati, ta1, 1420hi/ 2000m.

7_snan altirmidhi, muhamad bin eisaa bin sawrt bin musaa bin aldahaki, altirmidhi, 'abu eisaa,(ta: 279hi), taha: bashaar eawad maerufun, dar algharb al'iislamii, bayrut, 1998m.

8_shih muslmin= almusnad alsahih almukhtasar binaql aleadl ean aleadl 'iilaa rasul allah _salaa allah ealayh wasilama_, muslim bin alhajaaj 'abu alhasan

alqushayri alnaysaburi (t: 261h), taha: muhamad fuad eabd albaqi, dar 'iihya' alturath alearabi, bayrut, da.t.

9_alkashaf ean haqayiq ghawamid altanzili, waeuyun al'aqawil fi wujuh altaawili, 'abu alqasim mahmud bin eamriw bin 'ahmadu, alzamakhashari jar allah (t: 538ha), dar alkitaab alearabi, bayrut, ta3 , 1407h.

10_miftah aleulumi, yusif bin 'abi bakr bin muhamad bin ealiin alsakakii alkhawarizmii alhanafii 'abu yaequb (t: 626ha), matbaeat mustafaa albabi alhalabii wa'akhawayhi, masr, 1318hi.

11_alujiz fi tafsir alkitaab aleaziza, 'abu alhasan eali bin 'ahmad bin muhamad bin ealiin alwahidii, alniysaburi, alshaafieii (t: 468h), taha: safwan eadnan dawudi, dar alqalam , aldaar alshaamiatu, dimashqa, bayrut, ta1, 1415h.

thanyan: alrasayil aleilmiati:

1_al'iidah, lilkhatib alqizwini, taha: 'a.da/ faraj muhamad faraj 'ahmada, risalat dukturah, makhtut fi kuliyat aldirasat al'iislamiat walearabiat lilbanin bialqahirati, 1414hi/ 1993m.